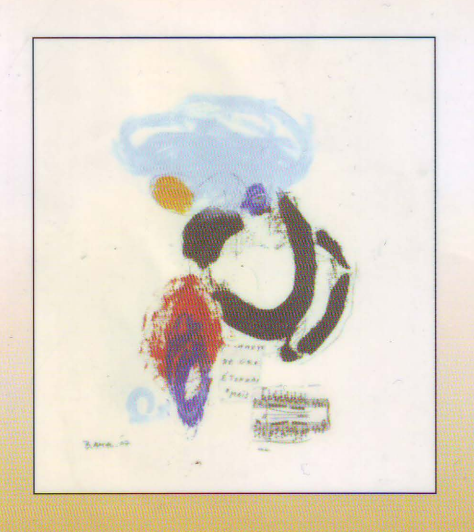
واسيني الأعرج

أسْماكُ البر المُتوحّشِ



منشورات الجمل

قصص

واسيني الأعرج

أسْماكُ البرّ المُتوحّشِ

قصص قصيرة

كتبت بين ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠

منشورات الجمل

واسيني الأعرج: مواليد ١٩٥٤ بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد، بل تبحث دائما عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزا ولكنها بحث دائم ومستمر.

- تحصل في سنة ١٩٨٩ على الجائزة التقديرية من رئيس الجمهورية.
- تحصل في سنة ٢٠٠١ على جائزة الرواية الجزائرية، على مجمل أعماله الروائية.
- اختير في سنة ٢٠٠٥ كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية على روايته الملحمية: سراب الشرق.
- تحصل في سنة ٢٠٠٦ على جائزة المكتبيين على روايته: كتاب الأمير.
- تحصل في سنة ٢٠٠٧ على جائزة الآداب (الشيخ زايد) على روايته: كتاب الأمير.
- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الإسبانية والعبرية...

واسيني الأعرج: أسْماكُ البرِّ المُتوحِّشِ، قصص

الطبعة الأولى ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

إهـداء

إلى العربي رمضان، شهيد الرغيف والظلم.

إلى حياة التي فُطِمت في وقت مبكر ولم تشبع حليب أمومتها.

لا يهمُّ، ربما كان الغد أفضل.

ربما..

مقدمة
معطف رضا حوحو

نكتب القصة القصيرة بكثير من المتعة والشوق الدفين وننسى، أو نتناسى أننا كلنا أو معظمنا، خرجنا من معطف رضا حوحو، القاص المتميز الذي منح الأدب الجزائري، في وقت مبكر، الكثير من عناصر الحداثة ووفر للغة العربية، إمكانات التجدد والاستمرارية الحية. حوحو ظل وفيا لقناعة عميقة تبناها منذ البداية وكلفته الكثير في حياته، بل كلفته حياته.

كلما ذُكرت كلمة **معطف** في الأدب العالمي أحالت مباشرة إلى **غوغول،** رائد القصة الروسية والأكثر وفاء لها، الذي خرجت منه أجيال كثيرة وأعظم النصوص، وأكثرها تأثيرا في الثقافة الروسية الكلاسيكية والعالمية. وهذا المعطف نفسه يحيل عندنا، في الجزائر، إلى رضا حوحو الذي لم ينل الدرس النقدي الذي يستحقه ويضعه في مكانه الحقيقي خارج عقلية الإقصاء والتقديس. وهو الذي كتب وترجم عن الأدب الفرنسي وأعجب بالتجربة التربوية الروسية، وأقام في المملكة العربية السعودية وأدار إحدى مجلاتها الثقافية، وكتب من هناك روايته الأولى والأخيرة: **غادة أم القرى،** قبل أن يستقر نهائيا على القصة القصيرة التي ظل وفيا لها حتى النهاية.

هاجس ينتابني كلما قرأت نصوص الجيل الذي أعقب رضا حوحو في الكتابة القصصية والروائية. مثلا: هل ابن هدوقة خرج من معطف رضا حوحو الذي يعتبر أول من جرب الكتابة الروائية في صورتها البدئية مثلما حدث مع غوغول عندما ولدت كتاباته دينامية استثنائية في الفن القصصي العالمي؟ وهل انبنى ذلك كله بالنسبة لرضا حوحو على معرفة مسبقة وحقيقية لأصول الجنس الروائي والقصصي؟ أليس لقاء رضا حوحو مع الفن الروائي هو لقاء الصدفة مع الثقافة الأخرى؟ أي أن المعرفة الروائية ليست وليدة إستراتيجية النقص ولكن الصدفة؟ فقد كان حوحو يعرف اللغة الفرنسية وقرأ جزءا مهما من كلاسيكيات الرواية الفرنسية والروسية المترجمة مما أهله لخوض هذه التجربة؟ بالإضافة إلى اطلاعه على الرواية في الوطن العربي من خلال روادها الأوائل. ولماذا إذن حدث هذا الفعل المثاقفاتي الروائي في الأربعينيات، أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ولم يحدث قبل ذلك مثلا؟ ما هي الطفرة التي غيرت النظام المستكين للأشكال السردية والأجناس المهيمنة؟ ماذا حدث في فكر رضا حوحو وفي البلد نفسه وفي اللغة العربية ذاتها، في الجزائر، في تلك الفترة تحديدا؟ ما هي المتغيرات التي أدت إلى الاستعانة بنظام قصصي جديد؟ لماذا كتبت أول رواية جزائرية في السعودية ولم تكتب في الجزائر؟ رواية غادة أم القرى كتبت في مكة في ١٩٤٧، ونشرت في تونس في السنة نفسها وأهديت إلى المرأة الجزائرية التي تعيش تحت سلطان التقاليد المتخلفة والقاتلة لأية مبادرة. هل هناك مبررات موضوعية يستطيع البحث الأكاديمي أن يجيب عنها؟

عندما نتوغل في معطف رضا حوحو سنجده يعج بالأسماء التي

نعرفها، منها المؤسس الذي ترك ملامسه على النص الجزائري وهناك العابر. هل عبد الحميد بن هدوقة مثلا الذي كان وراء فعل التأصيل والترسيخ لهذا الفن في السبعينيات، خرج من صلب التجربة السابقة له، أي تجربة التأسيس الأولى مثلما يحدث في أغلب التجارب الأدبية الإنسانية؟ هل هو الابن الشرعي الذي خرج من معطف حوحو؟ المقاربة البسيطة تبرر شكوكنا، بل تدفع بنا إلى النفي، لأن حلقات التواصل في الثقافة الجزائرية مفقودة تماما وكلها مبنية لا على القطيعات الطبيعية، ولكن على التمزقات القاسية، وشتان بين هاته وتلك. فالقطيعة نظام طبيعي في تطور الأشكال وتناميها، بينما التمزقات هي فعل غير طبيعي وقسري لا يسمح للأشكال بأن تأخذ مداها التطوري الطبيعي. ابن هدوقة، في آخر حوار صريح وطويل، أجريته معه في بيتي، في باريس في سنة ١٩٩٦، شهورا قليلة قبل وفاته، أكد لي أنه لم يقرأ لا عبد المجيد الشافعي ولا نور الدين بوجدرة ولا محمد المنيع لعدم توفر هذه النصوص، ولظروف الحرب القاسية التي أجبرته على التنقل الدائم بين فرنسا للعمل في مصانع البلاستيك، وتونس، وإن كان قد سمع ببعضهم، ولامس جزئيا بعض قصص رضا حوحو، ولكنه بالمقابل قرأ القصة والرواية العربيتين بشكل كامل، بدءا من أيام طه حسين، مرورا بيوميات توفيق الحكيم، وانتهاء بثلاثية نجيب محفوظ، وقرأ الرواية الكلاسيكية والقصة القصيرة، الروسية على وجه الخصوص: ليون تولستوي، تورجنيف، غوغول، فيودور ديستويفسكي وغيرهم كثيرون. أليست الكتابة السردية بأفقيها القصصي والروائي ههنا، متولدة عن صدفة القراءات ولم تأت نصوصها ضمن نسقية تبدأ من نقطة بدئية وتصل إلى نقطة كثيرة التعقيد

والتي يشكل ابن هدوقة إحدى حلقاتها الكثيرة والمتداخلة؟ وماذا حدث في الخمسينات والسبعينيات ليرتبط التأصيل بهذه الحقبة؟ في أية إضافة نوعية كان يفكر ابن هدوقة وهو يكتب قصصه القصيرة وريح الجنوب؟ هل كان يدرك بأن ريح الجنوب مثلا ستدخل جسما جديدا وربما غريبا(؟) على السردية الجزائرية مثلما فعل رضا حوحو قبله؟ التاريخ الثقافي العام للجزائر لا يقدم إجابات تنتمي إلى الأدب، ولكنه يقدم حلولا سياسية وسوسيولوجية سهلة سقط فيها أغلبية الأكاديميين الذين ظلوا يدورون حولها ويكررونها بشكل متواتر. لا شك في أن للفعل السياسي دوره، ولكن الأمر هاهنا يتعلق بأفراد أنتجوا، وعيا أدبيا وجماليا لم يسبقوا إليه، فما هي دواعي هذه النقلات الداخلية، وما هي الحاجات الثقافية الضاغطة، وما هي درجات الوعي بالجنس الجديد التي صاحبت مشاريعهم الجديدة؟ عندما ندخل في هذه المنطقة يزداد ظلام البحث وتنسحب ردود الفعل السهلة، وتصبح الإجابات أكثر تعقيدا لأنها تتطلب جهودا خارقة ليس بوسع الفرد الواحد تحقيقها مهما قويت مواهبه وإمكاناته المعرفية. نحن إلى اليوم لا نعرف بالضبط كيف تمت الانعطافة الكبيرة التي غيرت وجه الأدب الجزائري من نزعة تقليدية متهرئة ومميتة، إلى حالة من الانفتاح على العالمية التي لا تقطع مع جذورها الحية، التي كان لرضا حوحو فيها دور الريادة بلا منازع. نحتاج إلى أن ننزلق داخل معطف رضا حوحو لمعرفته أولا، بشكل موضوعي وجاد، والإنصات لانشغالاته الكبرى، لأنه يستحق ذلك، ونبحث بعد ذلك في العدد الهائل من الأدباء، قصاصين وروائيين، الذين استطاع معطف رضا حوحو أن يخبئهم ويمنحهم مسلكا جديدا في الكتابة القصصية والروائية. فنحن في نهاية

المطاف ندين لهذا الرجل العظيم والحداثي بامتياز، بالكثير مما وصلنا من جهد ثقافي بناء وحيوي، على الرغم من ظروف الحرب والتمزق التي لم تصبغ نصوصه بلونها فقط، ولكنها سحبته نحو ظلمتها حينما اغتالته الشرطة الاستعمارية في الخمسينات، واضعة حدا لهذا المعطف الذي اتسع بسرعة، في وقت وجيز ومحدود. لا عاقل ينكر اليوم أن الرعيل الأول من القصاصين وجدوا في جهده الإبداعي واللغوي وجرأته الكبيرة، مرجعا للخروج باللغة العربية من قدسيتها والغوص بها في عمق المجتمع، بأفراحه وآلامه.

شيء واحد توقف عند حدود هذا الكاتب العظيم ولم يستطع قاص أن يصل له: السخرية التي طبعت كتاباته والتي لم تجد لم يطورها. فقد علامة للمقاومة الكبيرة. الوحيد الذي خرج من هذا المعطف هو القاص والباحث والمترجم أبو العيد دود، التي اتسمت أغلب كتاباته بهذا النمط الذي أخرج اللغة من صلابتها وأدخلها في غمار النكتة والتهكم، أي غمار الحياة.

مجرد كلمة وفاء وأنا أقدم لهذه المجموعة، للتذكير بهذا الرجل العظيم، معلمنا الأول، لأنه معلم من سبقونا وتعلمنا منهم، الذي لم ينل حقه النقدي الذي يضعه في رتبة الكتاب الكبار الذي شكلوا استثناء كبيرا في التجربة السردية في الجزائر.

واسيني

ـ ١ ـ

ـ يا لطيف! برد الموت هذا؟

حاول كريمو أن يستحضر دفعة واحدة وجه أبيه الذي سقط كعود ثقاب تحت أنابيب الغاز العملاقة. بان له وجهه المتفحم كبيرا، كبيرا، وجميلا، لولا بعض الزغب الذي نما في وجهه بصعوبة. لم يثره الموقف كثيرا فقد بكى يومها كالجمل. الله فرغ كل دموع الطفولة. ز ومع ذلك أحس بشيء يشبه الحزن يبدأه في شكل رجفة من ناصيته حتى أخمص قدميه. تكوم داخل جلده. التصقت عظامه بعضها ببعض إثر لفحة باردة غاصت إبرها في جسده الهزيل. تذكر مرة أخرى أباه وأخته حياة. كانت كنجمة جميلة مرغت فوق الأتربة السوداء. تلعب عند باب الدار بكل شيء حتى بالقطط الجائعة الشرسة، التي تملأ الحارة.

لم يعلق ولكن عينيه ظلتا مثبتتين تمسحان الشارع الطويل. في لحظة ما من اللحظات العابرة تمنى فقط لو يستيقظ ذات فجر، ويجد نفسه قد صار رجلا.

هاه. هاه. تفتحت عيناه عم آخرهما. أحس بأشياء تتكسر فيها مثل الزجاج العتيق، وبقطع الثلج تتكور داخل جلده الرقيق. تقلصت أعضاؤه دفعة واحدة ثم تراخت شيئا فشيئا كقطعة مطاط محروقة.

الحمامة جايه. وينك يا موسى الذباح؟

الرجل القادم سيد أنيق يلبس كسوة خضراء كالغابة. مخيف. يجرُّ طفلة صغيرة، جميلة كالقمر حين يكتمل الدائرة.

أوف. أول زبون بعد هذا اليوم الملعون الذي أخرج من ثلاجة، النهار في منتصفه، وأبناء الكلاب لا يمرون إلا في السيارات. تتبعهم كنوز سليمان، التي تحدث عنها جدتي حتى مرضت وماتت.

سيراج. تلميع أحذية.

سيراج. تلميع أحذية.

يا الله يا شباب.. تلميع أحذية.

مال الرجل والطفلة نحو كريمو. شيء من الفرح ينط داخل خلجان نفسه. فتح عينيه أكثر، كأرنب صغير بهرته ألوان الضوء القزحية.

نهارك يا كريمو.

ـ ٢ ـ

الكرسي الصغير واطئ جدا، ولكنه جميل وجذاب. وضع الرجل رجله فوقه. أومأ له بالبدء. أنتبه كريمو إلى قطعة الحلوى التي بيد الطفلة. ابتسم، ثم (تكمش) كالقنفذ.

كه. كه. الحلوى. حين سرقتها من بنت السائحة الأجنبية، بكت كثيراً، ولكني هربت ولم يجدني حتى الأطفال الذين استنفرهم الفضول. ثم ماذا لو أُهاجِمُها كالنسر. الطفلة صغيرة ولا تقاوم. أوف. سيخرج مني هذا الفيل كل ما بمعدتي. مع أن الرغبة في الحصول على هذه الحلوى الدمية، لا تقاوم..

آه لو كنت طائرا. سأنشر أجنحتي البيضاء فوق كل الأشياء الجميلة، وأفقأ كل العيون التي تذبحنا يوميا بنظراتها. لو. ولكني كريمو ولد جلول العامل وابن عيشة الـ. . التي أصبح يزورها كثيرا، الرجال الغامضون.

أحس بملوحة تذوب في فمه ببطء. بصق على الأرض. الحلوى. سال اللعاب على شفتيه السوداوين. سمع أصواتا غير متناغمة تتذابح داخل بطنه. حمرة ما سالت فوق خديه، وأشياء تشبه رائحة الشمع المحروق، تصاعدت إلى أنفه الصغير. مسح فمه بكم قميصه المطوي عدة طيات عند معصمه. تراءى لنفسه، قردا صغيرا يتسلق الأشجار ويأكل الموز وفواكه أخرى حلم بها ذات ليلة حين بقي في الفراش أكثر من أسبوع.

ـ يا هذا الجرو. ألم تسمع؟ قلت لك ابدأ.

ـ حاضر سيدي.

انتبه إلى وجه الرجل. منتفخا كبطاطة المنياطو أنفه، كان. قارن نفسه به. بان كريمو عاريا، عاريا كما سقط لأول مرة من رحم أمه قطعة محروقة وباردة رفضتها العائلة قاطبة مثل أخته حياة.

غمس قطعة قماش بالية في كأس ماء أسود، مسح الحذاء بالماء والصابون قبل أن يغمس الفرشاة في الدهان.

أمعن النظر فيه من جديد من تحت جبهته العريضة المتسخة. أحس بالجوع ينشب أظافره في بطنه الفارغ، وبرغبة لا تقاوم في التَبَوُّلِ.

آخ.. هذه الأوداج المنتفخة، وهذا الفم القذر. تستحق أن يبول المرء فوقها بحرية مطلقة.

تخيل الموقف. كاد ينفجر ضاحكا. تماسك. خاف أن يفلت منه زبونه الوحيد. في لحظة ما كانت تنمو على هوامش البدء والانفراط، رآه غولا بأسنان طويلة كالمذراة يلعب برؤوس الأطفال، ويعبث بنزع عيونهم.

قطب كريمو جبينه كقمر حزين. أخذ يعصر على الفرشاة التي ضمَّخها بالدهان ضغط. ضغط أكثر على الحذاء، مستعملا جزءا كبيرا من قواه حتى بان له الرجل من جديد، بصلعته اللامعة تحت أقدامه. الذم يسيل من فمه، أسود مثل مياه المستنقعات. وهو يحرك حذاءه ويطأ بقوة. اختلط الوجهان الكبيران.

اختلطت الساعات، فتناسلت الأزمنة في عينيه كأمواج البحر، وتكسرت الأحلام.

أوه يا ماما حنا. كانا عاريين. هو فوق، وأمي تحت. كما في منتصف الليل وكنت مريضا. سمعت شخيرا. خفت. نهضت بسرعة من فراشي. رأيتهما عاريين كفأرين. لم اصدق. كنت أحلم. اختبأت من جديد تحت الفراش لكنني نهضت مرة أخرى على هدير سيارة. انتبهت من زجاج النافذة كان بين يديه في لحظ وداع. لم أقل شيئا. رجعت إلى فراشها. رميت الوسادة. الأغطية. علقت بيدي خرقة بالية عليها بقع دم وأشياء لزجة مثل ريق الحلزون في فصل الربيع. تصاعدت إلى أنفي رائحة غريبة تشبه العرق والحيض وال. أحسست برغبة في التقيؤ. أمي لم تكلمني. رجعت إلى فراشها ثم نامت على دمعة.

في الصباح شربت كأس كاملة من الحليب وقطعة خبز كبيرة. يحدث هذا لأول مرة منذ وفاة أبي. ثم بكيت فتمنيت في تلك اللحظة لو تخرج كل صرخات الولادة المكتومة التي ما تزال في صدري كالغمّة. وبكت أمي.

أنتبه إلى الطفلة التي كانت ما تزال عالقة بيد أبيها، كسلة صغيرة. ضغط على الحذاء أكثر. بانت عيونها زرقاء زرقاء، مثل عيون نجاة بنت جارتهم. تمنى لو كان بحرا مملوءاً بالأسماك الجميلة، يدخله الصيادون بأمان. لو كان باخرة تضم بين أحشائها الناس المسافرين والأحباب. لكنه لوحة. مجرد لوحة قديمة مرمية على شاطئ مهجور.

أوف. هذه عيون من زجاج. مشوهة. لو لمستها، لتكسرت بين يدي قطعة، قطعة، كطفلة من الشكولاطا.

..غضبت من أمي. لكني في اليوم التالي عدت إلى راويتي التي كانت ما تزال تنتظرني. أصبحت أرى أمي يوميا تستقبل الرجال الغامضين، ولا أقول شيئا. ومع ذلك فأنا ما زلت أحبها وأحب أختي الصغيرة حياة.

ضغط أكثر على الحذاء. فاجأته ضربه على رأسه.

ـ العمى. لو يتمزق الحذاء، تشتريه أمك يا وحد الفرخ.

ـ . . . .

ـ ٣ ـ

الطفلة ما تزال واقفة. صغيرة كقطة. قطعة الحلوى ما تزال بين يديها. فتح عينيه على وسعهما. حاول أن يخيفها، تسقط الحلوى من

يدها اليمنى. تخيل نفسه، يلحسها. أخذها. هرب بعيدا وراء جبل أخضر كان أبوه يستريح فيه يوم الأحد قبل أن يحترق كحطبة يابسة.

تطأطئ لطفلة قامتها الصغيرة. يرى تبّانها الوردي. يحني رأسه يمسح بعينيه قذرات الأرض. تهم بأخذ قطعة الحلوى. يفاجئها أبوها. يأخذها بين يديه كالأرنب الوحشي المدجّن. يتعمق عينيها. يدخلهما بكل ثقل جثته المترهلة. يقبلها. يدغدغها.

- لا يا بابا. إنها متسخة. سأشتري لك غيرها.

آه يا أبي لو تعود. سأخبرك هذه المرة أن تأخذني بين ذراعيك، وتقبلني حتى يغمى علي وعليك.

أبي الذي تفحّم، كان رجلا من الرجال الطيبين. لم يكن لديه وقت لحملنا فوق رقبته والجري بنا في العالم كله. يستيقظ قبل نجمة الفجر ويعود ليلا. حتى وجهه لا أتذكره جيدا. ما عدا الزّغب الذي نهرته أمي لأجله كم مرة.

فرح يتمطّط في أعماقه كالنهر. تركزت عيناه من جديد على قطعة الحلوى المهملة عند أقدامه.

سيتركونها. بعد قليل سيذهبون. سآكلها. ولكن من أين أبدؤها؟ من أين؟؟ من تحت؟لا. من فوق؟لا؟

وجد يده اليسرى تتسلل إليها. فاجأه صوت الرجل الذي يقف فوق رأسه كجن أزرق.

- اسمع يا ولد. خُذ. اشرِ لها حلوى من الدكان المقابل.

ياه. حظك يا كريمو. كم مرة حَملت عشرة دنانير كاملة؟

تَلَمَّسها. أحس بشيء ينهار داخله كشجرة الخرّوب الضخمة التي

كانت جدته تستظل تحتها حتى ماتت في ظلها. سمع في أعماقه أصواتا جافة تتكسر. نيران تصعد من أقدامه وتثير فيه رغبة الهروب بعيدا. بعيدا بهذه الدنانير. أشياء تشبه الأملاح والبحار، والنجوم، وبراعم الشجار تتعجن داخله لتكون كتلة غامضة. أمور كثيرة تنمو وتخيف كالعاصفة.

هه. ماذا أخسر. عتاد لا يساوي صولدي[1]، مخروق. فلتهد السماء إذا شاءت. لوحة، وشوية نحاس وأنا صنعت كرسيا أحسن من الأول.. صحيح قد أتعذب كثيرا لإنجازه. ولكنّ عشرة دنانير دفعة واحدة يا ربي سيدي؟

قبل أن يتحرك من مكانه، كنس التربة بعينيه مرة أخرى. قطعة الحلوى ما تزال في مكانها. حيث جمع من النمل الدقيق بدأ يتآكل فوقها.

في تلك اللحظة بالذات تمنى لو كان نملة.

لو يصبح طائرا. نورسا أبيض. ينشر جناحيه الواسعتين فوق كل الأشياء الجميلة التي تثير الدهشة بمجرد رؤيتها. بل بمجرد الأساس بها.

وفي لحظة ما غير محددة، انقرضت فجأة على هوامش الهموم اليومية. تمنّى لو كان قنبلة انزلقت إلى بطن هذا المخلوق الذئب ثم انفجرت بقوة.

في الطريق فكر مرة ثانية بالهرب. ماذا سيخسر، في نهاية الأمر. فاجأه الصوت وراءه كضربة جلاد، صرعت حلمه وفتتت نجمته التي يسافر فوقها كجميع خلق الله.

---

(١) عملة نقدية قديمة.

ـ اجر الله يجرّي كَرْشَك. الطفولة ماتت من البكاء.

جرى قليلا. ثم تمهل. تذكر الحسابات. العشرة دنانير. أملاك سليمان. الجدة التي ماتت وفي حلقها شيء من هذه الحكايات.

ـ أيوه. عشرة نقسمها على. كيلو خبز بدينار. ليتر زيت بدينارين. قارورة دهان بنصف بدينار من عند عمي عمر الدانجورو الذي يبيع الأشياء العتيقة. و. و. يبقى ديناران. . آه. وجدتها، أشتري لحياة قطعة حلوى. ستفرح. ستحبني. ستضحك من نفسها حيث ترى فمها محاطا بلون الشكولاطا. مسكينة لا تعرف الشكولاطا. حتى أمي حين يزورها الرجال الغامضون، تخرجها، وتضع في يدها حبة سكر.

التفت وراءه.

الرجل مازال ينظر إليه كذئب مريض. الطفولة ذات العيون الزرق تكومت في لباس أبيها. لم تعد تبكي. إنها تنتظر إبُلاً وشاحنات تأتيها محملة بكل أنواع الحلوى والفواكه وال. أحس بالانسحاق. تمنى لو يبكي. فجأة. أيقظه بوق سيارة مرت مسرعة عند أقدامه. حاول أن يحدد موقعه وجد نفسه يتمترس وسط الشارع. الضوء الأحمر ما يزال كما كان. قطع الطريق. ولم يعد للإشارات معنى.

عند العودة أشتهي تلك الحلوى، لكنها كانت بعيدة. بعيدة. معلقة على كفّي عفريت وفي منقار غراب سافر بعيدا وراء جبال الواق الواق.

حاول أن ينسى أنه يحمل شيئا في يده.

مصت الحلوى بتلذذ محدثة صوتا مغريا. من شدة الرغبة القاتلة رآها نحلة صغيرة تحوم فوق الأزاهير وتغوص في الأشياء الجميلة حتى التهلكة. كانت جميلة مثل نجمة الفجر. شعر برغبة في الابتسام ولكن شيئا ما لم يستطيع تحديده، منعه من ذلك. ربما كان بؤس أمه. أخته التي احترقت فوق صدر عتيق، وثدي جاف أصبح لا يسيل منه إلا الدم. حياة كانت آخر طلقة. رغبة متمردة. يوم سقطت من الرحم كل الناس أداروا وجوههم. أتذكر أنّ أبي بكى. ولأول مرة أراه يفعل ذلك في حضرة أمي.

طأطأت الطفلة ذات العينين الزرقاوين قامتها الصغيرة. قعدت القرفصاء. أبوها كان غائبا في صفقة ما؟! أو يحلم بصدر امرأة، عريض يستقبله الليلة، مقابل دنانير يبصقها جبينه في آخر لحظة.

أزعجته الطفلة. لم يقل كريمو شيئا.

أخرجت لسانها الصغير. رفعت أصبعها الأوسط ثم قوصته تجاهه. تمنى لو لم يكن أبوها هنا، ليعلمها الأدب.

وحق ربي. أشويها، مثل القط الأصهب الذي أكلته أنا وعليلو ولد خالتي مريم. في البدء رفض، وحين سمع العظام الصغيرة تتكسر تحت أسناني نسي أنه يأكل لحم قط هو الطفل الذي لا يرى اللحم أيام العيد مثلنا.

انتبه إليها. كان أصبعها ما يزال مثبتا تجاهه مشهرا كاللعنة.

ياه. يا الله. ما تحشمش. نجاة بنت جارتنا صبَّعت لأمها ذات مرة. فضربتها، ولم تكرر بعد هذا نفس الفعل. عيب. ويوم دخلت

المدرسة بألبستها الوردية، حكت لي أنها خافت أن ترفع إصبعها في وجه المعلمة، مع أنها كانت تعرف الإجابة جيدا. حين حكت لأمها القصة. أفهمتها الفرق. هذه الطفلة ذات العيون الزرق كالقطط التي نأكلها، المؤكد أنها في دراهم تفعل نفس الشيء. والعائلة تصفق. وتدعوها إلى التكرار.

عيناها مثبتتان فيه بشكل مزعج. يحاول أن يدير وجهه. أن يتفاداها. تمد عنقها بحثا عن عينيه. يواجهها بصرامة. بنظرة حادة. تفتح فمها. تخرج لسانها المملوء بالشكولاطا وتعقف أصبعها الوسط مرة أخرى.

آخ. هذه النّاموسة مجنونة.

من جيد وضعت أصبعها داخل قارورة الدهان، اتسخت يدها. حكت جبهتها. حاول كريمو كتْمَ ضحكة عريضة ولكنه انفجر كالملحة.

ـ كه. كه. نملة حمراء.

ـ نعم. تقول يا جرو الخلاء.

لا حظ ابنته التي أصبحت في شكل حذاء.

ـ تضحك يا واحد الموسّخ؟

أحنى رأسه. خاف أن يضربه. أن يصرخ في وجهه. أن يعضه كالكلبة العجوز التي التهمته من اليد اليسرى السنة الماضية. ويسمعه كل الكلمات البذيئة التي عرفت على وجه هذه الأرض الواسعة التي ضيقوها حتى أصبحت في شكل حذاء نتن من الميكا. ولكنه لم يفعل شيئا من هذا.

حاول أن يؤنب طفلته.

ـ ماذا فعلت يا هذه البنت؟؟؟ هذا ليس عملك.

أخرج منديلا أبيض من جيبه ثم مسح كفها، وتركه يسقط مع قطعة الحلوى فوق الأرض. انتبه كريمو. وضع رجله فوقهما. رأى من جديد، النمل فوق القطعة الأولى. لم يقل شيئا ولكنه تمنى فقط أن يكون أرضا تفغر فاها للأشياء الجميلة. واصل بصمت مسح الحذاء.

ـ ٥ ـ

بكت الطفلة ذات العيون البحرية. أشار أبوها إلى الحلوى. رفضت برأسها. وعدها بأنه سيشتري لها عربة من الشوكالاطا وشاحنة، مثل التي مرت قبل قليل من الدمى الجميلة.

ـ هيا أنت مالك حال فمك. إمسح.

ـ تقريبا خلاص يا سيدي.

ضحكت الطفلة مع كريمو. خاف منها.

غريب. هذه المجنونة تريد رأسي لعبة. وحق ربي سأفقصها كالقملة.

اختبأت بين رجلي أبيها. وأشارت إلى الصندوق المنحّس الذي يضع فوقه رجليه. طارت الأحلام من قلب كريمو. أشياء غامضة تشبه الموت سدت حلقه. وبدأ يتكور ذلك الشيء الأسود في كامل جسده. سقطت الفرشاة من يده اليمنى مسحها، ثم عاود تلميع الحذاء.

الطفلة تبكي. تضع يديها على جبهتها. تصرُّ.

أي. هذه القطة المتسخة تريد أ، تستولي على خبزتي. وإذا أخذتها، هذا يعني شهراً آخر من العمل، وشهرا آخر من التوقف عن العمل. لو فقط سرقت العشرة دنانير. اللّطف من عندك يا سيدي بوجنان. يا سيدي علي برمضان. أمي دائماً تطلب الأولياء ويستجيبون لها في اللحظة التي يكاد أن يكسر فيها النجم الذي تركبه ويسقط شظايا. شظايا.

الطفلة تثير المارة. تبكي تتقلص عضلات كريمو في داخله سوداء. سوداء قطران. يربت الأب على ظهرها. يطأطئ. تظهر النجوم والجبال الجميلة التي يحملها على كتفيه.

ياي!!! العسكر مروا من هنا.

ـ ما بك يا بابا؟

ـ هذا. هذا.

تشير بأصبع ممتدّ طويل كالسهم الحارق إلى الصندوق الذي كانت رجله تنام فوقه. تتشابك الخلجان، تهب أرياح شتوية. تغمض عينا كريمو. يتفسخ. تصرع الأطيار الجميلة والفراشات التي تلعب تحت جلده الرقيق. يتحول إلى ذرات. تحمله الرياح الحزينة بعيدا. بعيدا. إلى أماكن يراها للمرة الأولى. إلى أراض جافة كصدر أمه لا تنجب إلا الجوع. يتكسر الزجاج في عينيه، تسقط دمعة ملتهبة كالنار.

ـ ٦ ـ

ـ مالك حال فمك. امسح.

ـ انتهيت يا سيدي. تستطيع.

ينزل الحذاء الخشن من على الصندوق. الطفلة تبكي. القطة ذات العينين الزرقاوين تصرُّ وتبكي. مرة أخرى شيء بارد يشبه الثلج يسقط فوق رأس كريمو.

اللعنة عليك وعلى أبيك الذي يلبس أشلاء أمي. آه لو تصابين بالخَرَس والشّلل والبُكم. تناهى إلى مسمعه هدير سيارات عسكرية. سمع زخات الرصاص تأتي من الجهة الخلفية لهذا الشارع. يدخل رجل المعمعة. تثقب رصاصة صلعته. يسيل الدم على وجهه. يحجب عنه العالم. يسقط بتثاقل.

ينزل الأطفال بكل أشيائهم الصغيرة. يجرون وراء جثة ثخينة تحتلّ الشارع كشاحنة عسكرية. يصيحون ملء أفواههم.

المختار. المختار.

.. ب. طار

بين القصعة

والمسمار..

.... و.....

رأى فيما رأى، نساء يصلبن من نهودهن. رأى قطعا من خبز الشعير تنزع من أفواه الأطفال لكلاب الحارات الشعبية. إنه عالم الجوع. يسْتُرك يا ولي الله الخيِّر، يا سيدي بوجنان، ويا سيدي علي برمضان.. يا سادة الشأن العظيم. الستر. أنت في بر الأمان.

ـ أوه. أنت طفلة لا تحتملين. خذي.

مسح أبوها الكرسي بصحيفة كانت في جيبه. أصبح الكرسي النحاسي أكثر جمالا. أخذته بين يديها. تأملته مثل اللعبة، طارت من

الفرح. نظرت إلى كريمو. ابتسمت. فبان ذئب مريض هرم يسرح في عينيها مثل الذي رآه ذات ليلة في حلمه.

مشى الرجل قليلا. تذكر شيئا. التفت وراءه.

- خذ. بَزَّاف عليك ما تكونش طماع.

تدحرج عند أقدامه دينار، ظل يدور ويدور ثم سكن باردا كقطعة ثلج فوق الأرض المتسخة. حاول كريمو أن يصرخ. أن يقول كل الكلمات البذيئة. تذكر أمه. أخته. فخاف ولاذ بالصمت. لوح الرجل إلى سيارة سوداء عريضة بيده. توقفت عند حذائه الخشن. ركبا. تزحلقت الطفلة إلى آخر مقعد. وقفت على رجليها. انتبهت إلى كريمو متسمراً كجنرال مهزوم، أو كقرد لم يثر اهتمام المارة. البرد. أخرجت لسانها ثم قوست أصبعها الوسط وصوّبته نحوه.

لم يقل شيئا، فقد كان الغبن يشتعل داخله كأوراق فاتورة قديمة وصحف عتيقة. دحرجتها الرياح في كل الأمكنة.

أعوجت أعناق الورود الجميلة. وسقط النورس الذي ينشر أجنحته العريضة فوق الأشياء الجميلة، بعد أن فتنت رأسه طلقة بندقية صيد.

تأمل الطفلة ذات العينين المخيفتين. تذكر أنها ستكبر وتصبح غولة بأسنان طويلة كألسنة النار.

غابت السيارة في منعطف ما. أحس برائحة الجوع تكتسح معدته وبغربة الساحة الخالية. التفت. مشى خطوات. ضرب الحلوى التي صعد فوقها النمل، برأس حذائه. تطايرت في الفضاء. انتبه إلى الدينار. تأمله قليلا. همّ بضربه هو الآخر لكن شيئا ما وقف بينهما، ربما كان الجوع. انحنى بعياء. أَخَذَهُ.

وضعه في جيبه ثم تدحرج بصمت إلى الشارع. الذي كان يمتد كنهر جاف.

ـ ٧ ـ

في المساء البارد، تكوم في حجر أمه، كقطعة قماش بالية. ثم نام على دمعة وتمنى لو يسمع شخير سيارة ويرى هذه العجوز عارية كفأرة تأكل صدر هذه الجثث المترهلة وهذه الأجسام الغريبة التي تنتهكها كل يوم.

في الليل، لم يسمع شيئا غير زخات المطر المتتالية.

رأى نفسه في الحلم نورسا أبيض ينشر جناحيه الواسعين على الأشياء الجميلة وعلى بقايا ابتسامة ارتسمت بين شفتيه اليابستين.

دمشق ١٩٨٠

باريس.. وأشياء أخرى

يا أنت . . يا هذا الرغيف
لكم تخيف .

عبد الوهاب البياتي

ـ ١ ـ

هو الآن يدرك جيدا أنه قبل أن يمارس الرحيل إلى هذه البلاد الغريبة، وقبل أن يفتقد ظله الجائع في شوارع باريس ويجده ثانية، كان قلبه مستنقعا يعج بالذباب المنتفع. تمدّد في جسده غبي من أغبياء العصور الوسطى.

باريس تحل مشكلة البرد والجوع.

هكذا تصور قبل زمن توّجته كوارث السنين المريضة.

ـ ٢ ـ

ـ جئنا بحلم وهانحن نعود بجثته.

تهالك على أحد المقاعد بالمطار المكتظ بالوجوه الأفريقية. يتأمل هذه السواعد العائدة إلى حضرة الوطن. فاضت في عيونه بعنف رهيب أزمنة سقطت مهزومة أمام الواقع وهو جالس يحلم بالعودة في صقيع هذا الشتاء. كان وجهها ظلاً يذرع وراءه شوارع باريس، ويلاحقه حتى الأمكنة المتسخة.

جلست بقربه. تأملها جيدا من تحت أهدابه. عيونها واسعة كالبحر. حدث هذا في الليلة الأخيرة قبل الرحيل، وكانت حقائبه محزومة.

ـ أنت حزين. ؟

ثم تدحرجت دمعة من عينيها الواسعتين.

ـ جياع. مزقتنا السياط.

سقطت من ذاكرته أزمنة تناضل الموت. وعاوده وجه صغيرته بشكل الوطن المنفي وكان الجوع يعوي في بطنها.

خبز.. خبز.. خبز..

ناولتها الأم كسرة سمراء. أخذ يتأملها بشكل غريب. فأحس هذه المرة أن هيكله لا تتحمله رجلاه. ثقيل. ثقيل كالرصاص.

كانت أكبر من حجمها العادي. تتحايل على الجوع. تقضم اللّباب ثم القشرة، وتخادع نفسها بأنها شبعت. ماذا يا إلهي لو وجدت ذات صباح ميتة، يابسة من البرد والجوع. هزلت الدنيا في عينيه. عجوز يطاردها العراء. تدور دورات غير عادية. فباع البقرة الصفراء والأغنام القليلة ليشتري عربة يلج بها شوارع الشط الآخر المظلمة الموبوءة.

ـ ٣ ـ

ـ سأرحل.

ـ والأولاد؟

ـ باريس هي الحلم. والحلم هو باريس.

ـ والوطن؟

ـ أنت.. إن هجرته فلن أهجر عينيك.

ـ ٤ ـ

تعالى الضجيج أكثر في المطار.

عاد يجر وراءه ذاكرة مثقلة بالأزمنة العمياء.

تذكر طعنات الليل.

سقطت عيناه ذات مساء على صحيفة ما، وهو عائد إلى قبوه يحمل عياء يومه.

زنجي يضحك الأوبرا بكاملها

سقوط مهاجر عربي من أعالي البناية

قنبلة تتفجر في القنصلية الجزائرية.

انهيار منجم في الشمال يخلف مائة ضحية

تذكر أنه تمتم وهو يعبر الزقاق الضيق، وكانت الشمس قد سقطت وراء البنايات العالية.

ـ سقطوا. وباريس لم تهزم.

شعر وكأن أقدامها تقتفيه منذ أن غادر المصنع. التفت. كان شبحان يطوفان وراءه. تشكل على وجهه رعب غريب.

ـ مرة أخرى. رأسي معلق في المزاد العلني.

صار الرجلان امتدادا لظله الذي بدأ يبحث عن نفسه وسط الظلمة.

ـ أيام الحرب عادت. أعطِ الرِّيح لرجليك يا محند. يا أنت. يا هُمْ.؟

تشابكت صور المحطة بأيام الحرب وهو مطارد على الحدود.

ـ ٥ ـ

كانت الشمس قد بدأت تشم رائحة الحزن في رحيلها نحو المغارات السحيقة. تحك انفها على التراب. لتسقط زنجية على الصخور الملتهبة.

ـ اجر. اجر. رأسك في قدميك.

ليس بعيدا عنه. ارتسمت في الأجواء حمرة البنادق المسلولة. وعلا نباح الكلاب..

هـــــــــــــاووووووووو. هـــــــــــــاوووووووووووو. هاووووووووووووووووو.

استدار للمرة المائة.

ـ لو يقبضون علي يمزقوني.

تراءت له في نقطة ما. أكواخ قريته المرمية على الهوامش التي تنام قبل سقوط الشمس، وتستفيق على النجم الأول. في أحشائها فواجع تضطرم. مهشمة. في خرابها ينعق يوم بحجم صومعة المسجد.

ـ اجر لم تبق إلا خطوة على الحدود. اجر.

ارتدّ صوته في داخله حين لاحقه صوتها وهو يعبر الأدغال والأسلاك الشائكة.

ـ تشجع. هذه هي الحرب.

ـ ألعنها. صدقيني أني ألعنها.

ـ أنت مطارد لأنك رفضت الوضع.

ـ وقتلت. اكرهها في هذه اللحظة.

ـ اجر. لو تتعدى نقطة الحدود. وتلج المقهى المسلول. ستنجو بجلدك.

تمهل قليلا حين تعالى إلى مسمعه صوت الذئاب وهي تتآكل.

عاوووووووووو. عاوووووووووو. عاوووووووووو.

ـ أوف. هذا العالم يحتاج إلى إعادة نظر دقيقة.

الحاج يبيع ويشتري. الحرب تأكل. والشعب يموت.

ـ ٦ ـ

أحس وكأن قطعة من الثلج تتكسر تحت الرفس. التفت من جديد.

ـ يا الهي، لا زالا ورائي.

ـ إيه. ذاك فرار. وهذا فرار. لكن الموت يجمع بينهما.

انكشفت صفية؟ عظيمة بحجم خريطة الوطن التي يحملها تميمة في صدره. كانت عيونها كما رآها في الحلم. واسعة كالبحر. تعج بالأشياء الجميلة.

ـ تشجع. هذه هي الغربة.

ـ هكذا. كذئب تطارده كلاب الحي.

ـ أنت تشوش في المصنع وتعاشر المشبوهين.

ـ وهل هذه جريمة.

ـ لا. ولكن حتفك يعطي الكثير ويكلف القليل.

ـ المهم. سأنجو. ودين محمد سأنجو.

هكذا قال العراف ذات يوم وهو يقرأ في عيون صفية.

ـ زوجك. سيرحل إلى بلاد الموت. قد يعود خبرا مع الريح. لكن أغلب الظن أنه يعود حيا بين يديه ترقد أحلاماً متسخة ذابلة.

ـ سأنجو هذه المرة كذلك. فنبؤة العراف صادقة.

قدماه تكادان لا تلمسان الشارع. غزالة تطاردها ذئبة هرمة. علق بحلقة طعم الليل الستر، والأشياء التي حين تُرى لأول مرة تثير الدهشة.

ارتطم. تعثر فسقط ثم نهض بسرعة.

عاوده ألم رجله مصحوبا بحمى الموت والصخب.

ـ عليك اللعنة، يا هذه الرِّجل.

تسرب من ذاكرته (المنجم) بعفونته، وضجيجه وأشياء أخرى.

ـ كه. كه. لو مت. جيفة. كلب داسته سيارة في إحدى أزقة إفريقيا الضيقة.

تحسس ألم رجله وقد استيقظت فيه ليالي المنجم الجائعة

ـ أربعة أيام جوع. وبرد لا نفرق بين الليل والنهار.

كومة من الوجوه الإفريقية. أوصالها منزوعة. تموت تحت الردم بعيدة عن الأوطان. أخرى تئن ممزقة. وغيرها تموج فوق الماء العفن كالقش في مستنقع خريفي.

ـ هنا نجوع. ونموت. وندفن أحياء.

تأمل نفسه لحظة موت قبل أن يستسلم.

ـ إيه يا صفية. الوصول إليك الآن أصبح صعبا.

ـ بوف. النفس تموت هاربة. ومن يدري؟

استيقظ ذات صباح على شعاع يتسرب من نافذة المستشفى. وكانت رجله ملفوفة في حذاء صيني من الطين الأبيض.

برق الموت في عينيه. فزاد في سرعته أكثر من أي زمن مضى.

حاول ترتيب المسألة. تراءى الوطن بقامته الجميلة وأيام الطفولة بأشيائها الصغيرة والكبيرة. وشيء من الخوف ينمو.

كان قزما عالقا بعباءة أمه الممزقة وهي تجوب الأسواق الشعبية. ثم وهي ترعى الأغنام على عاتقها سنين السياط ولوعة الفقر.

على حيطان وأسوار القرية الرثة يرسم بالفحم مع الصبيان خريطة الوطن المسلوب وأشكالاً أخرى هو نفسه الآن. لا يتذكرها جيدا.

أحس بلسانه قد سقط من فمه، وهو يفتح باب القبو. استسلم لنوم عميق تطاحنت فيه الكوابيس والأحلام.

ـ ٧ ـ

فتح عينيه في السجن.

سأله واحد إفريقي القسمات.

ـ أتعرف لماذا أنت هنا.

ـ لا أتذكر جيدا.

ـ أنت خطر على باريس.

ـ مـ مـ مـ. . لم أفهم بعد.

ـ يروج عنك. إنك تعديت يوم أمس على شخصين.

اندهش كطفل تكشف كذبته.

زعق السجان في وجهيهما هذه المرة بعنف.

ـ افترقا.. ممنوع الحديث بين اثنين.

حين غادر السجن. كان يحمل على ظهره صك العودة. تساقطت باريس من عينيه. امرأة مهشمة، ثقيلة. متعبة حتى النخاع.

وهو يركل هذه المدينة. خالها بقربة. قطعت البحار. وكان المطر يتساقط فلمحها من تحت معطفه الخشن. كانت رائعة. صفية. هذه الطفلة الوطن.

كه. كه. قطعة إلى أرض الموت. اشترى الموت.

أخرجها من الذاكرة وضمها طويلا حتى أسكنها دفء قلبه.

ـ الوادي إلى النبع يعود. فأنت حزني. جسدي. وقبري.

ـ لا يهم البرد. سأشحذ مسكنا بين عينيك.

ـ فاقد الشيء لا يعطيه. فباريس تعاني من العرى والجوع.

تلوى كالحلزون على نفسه. ودفن أنفه من جديد في صدره.

ـ ٨ ـ

تعالى الضجيج وتكاثرت الوجوه من القارات الجائعة في مطار أورلي. أحس برائحة الغياب تتصاعد من جله الذي غسله الليلة الماضية في حمام شعبي حين تقلصت الأحلام التي ولج بها هذه المدن الغريبة.

نهض من مكانه على أثر صوت يعلن بنبرة فرنسية تلتها لغات متعددة.

الرجال من المسافرين المتوجهين إلى الجزائر الالتحاق بـ..

كانت الحقيقة أثقل منه.

باريس عيونها متلفة بالدخان.

تفحص بعض الوجوه الشاحبة. كان جيش من الناس يطلبون جسر العودة صحت عيونهم من الغفوة. تماما كالطيور المهاجرة.

توجه قبلة الحلم وحدث نفسه.

ـ بيني وبينك أطفال يضطربون ويئنون. وسجون تعج بناس سقطوا ويسقطون.

بيني وبينك أيها الحلم التافهون.

ـ ٩ ـ

ـ ملامحك عربية.

نطق واحد، وجهه ليل.

ـ أدرك أن باريس مقبرة العشاق.

قبل أن تحتضنه الطائرة. رأى وجهه للمرة الأخيرة في زحام المسافرين. فلوح له. لاحظ من تحته وهو في الأجواء مئات السين ومداخن باريس وهي تغيب لتسقط في الأبد اللامتناهي.

ليل من الناس يعودون في حقائبهم أحلام مفجوعة، وتجارب بحجم الذاكرة

ليل من الناس يأتون. ويعودون.

- ١٠ -

عند عودته تبرعم طفلا صغيرا. تاركا وراءه ليالي العرى والصقيع.

قد يسبق الريح ويحضن الوطن بساعد أقوى. وتصبح مقلتاه رحاب العاشقين الذين سيأتون من بعد. ويتوج برايات الصراع

هكذا ختم العراف نبوءته.

هو يدرك أنها نبوءة صادقة.

فوراء الشاطئ ينمو وطن جديد يحمل بين قسماته جمال هذه الوجوه المنفية هنا، وهناك، وفي كل مكان من هذا الامتداد.

باريس ١٩٧٧

الجري
وراء نجمة الفجر

ـ ١ ـ

تحركت الحافلة كعجوز حامل. القيامة والعياذ بالله.

ـ ٢ ـ

رفضت يأسي وحزني فبلت على هذه المدينة المتعفّنة. أتذكر جيّدا بعض التّواريخ، فأحس ببعض الرّوائح تشبه البخور تصعد من أنفي.

قال ذات يوم متخوم يحسدني على فرنكي الأخير، ويتحايل للحصول عليه.

ـ الناس متشائمون، والشمس محرقة. يا أخي حالة؟!

ـ عليك سيدي، مشرقة. فشوارع مدينتنا شتوية.

تغوبش وتكمش كالقنفذ في جلده. وحاول أن يبحث عن مبررات، لكن عبثا.

عليك اللعنة يا ولد الـ. . داس قدمي ثم سار كالتيس. الحافلة مكتظة. . محرقة كالنار كانت تلك النجمة التي لا تأفل.

حملت وجهي في كفي مختوما بالحزن، وسحبت جسدي الجائع إليك لأن اليوم صقيع والأشياء الصغيرة تملأ رأسي حتى التفجر. آه لو تعلمين.

المدينة. آه لو تعلمين. هذا الطنين المتزايد وأنا متسكع، ذبابة

وسط هذه الغوغاء. تجر قاطرة من الأحزان في عينيها ينام الزمن مشلولا. وأنتِ. والليل هذه اللعنة الرخيصة، تزعق في وجوهنا كعادتها الروتينية.

ـ التسكع الليلي ممنوع.

تذكرت الليلة التي بتنا فيها متعانقين حتى الصبح في حديقة عامة. كنا صغيرين والعالم الكبير لا يقبلنا.

أمشي. فمي معصوب بالأسرار، وجسمي يبحث عن ملامحه وسط امتدادات شوارع المدينة، يعانق دفء الأشياء الصقيعية. فاليوم بارد ينز بالوحشة والغربة المطلقة. والرطوبة التي تنفذ بين مسامات الجلد كسيف هندي.

ـ يرحم والديك يا أخي، أغلق النافذة.

صرخ واحد من الركاب، أحس برداءة الطقس.

ـ ٣ ـ

كان وجهي، هذا الفقر الذي أحمله منذ عقدين رغم أنفي، كان يحبل بالحزن وينشر ألواحه في كل الامتدادات. يزمجر في وجه هذه العيون المثقلة بالتسول. يتمنى لو كان العالم على غير هذا الشكل. كه. كه. مثالي.

ولجتُ المكتبة. سوف لن أخرج سالما منها. العادة معروفة. كلما أدخلها تأكل مني القروش الباقية.

ـ هذا الكتاب. لا. وهذا كذلك لا يصلح لي.

ترحل ذاكرتي. تنمو كالمرض المسنّ محمولة على يأسها.

ـ كه. كه. من هنا ينبعث العلم.

تمتم. قهقه بسخرية ثم لفظه باب المكتبة الزجاجي. لمحته وعيوني مجمدة على كتابين. السيد كان يقول الحقيقة. كل الكتب تراثية هزيلة.

ـ أوه.. إليك كتابين رائعين.

انتشلتهما من الركام. نظرت إليهما بيأس. تسللت يدي لتسكن جيبي مكتوّمة على نفسها كالبطل المهزوم. وأحمرت خجلا.

ـ ياه. الفقر دنيء لهذه الدرجة.

ـ ٤ ـ

أتلوى في جسمي كالطفل الضائع. وأصمت. فيجهش صمتي في الذات الهشيم، يمطط أحرفا على جدار ذاكرتي التي كانت تمارس الرحيل إلى الزمن الأول المثقل بالجراح. يتململ الغضب في صدري، يتكور لهبا. فأحمله رفضا بين ضلوعي المكسورة.

آه. وهذه المتسولة أقرأ في عينيها خريطة هذا الجسم المسلول.

لست وحيدا في غربتي. هناك آلاف الخلق يدأبون يوميا كالنمل بحثا عن اللقمة.

ـ يا فقر النحس هل يكفي أن ألعنك؟

أحاول أن أجمع ملامحي بعيدا من المسالك والأقبية الوسخة.

من يمنحنا دفء الشموس أيها الزمن الموبوء.

ماذا لو. . لن نخسر شيئا لأننا لا نكسب شيئا.

المهدي. . المهدي. . هكذا حدثتني جدتي وحدّدتني. لن يأتي. فلنسر مضرّجين، نمزق هذه البطون المنتفخة ونتوّج هؤلاء الغرباء المنسيين على الهوامش.

ـ ٥ ـ

الطفلة المتسولة تمد يدها والصمت ثلج. الليل مخمور لا يبالي، وأنا هاهنا كالزمن الذي لفظني لأول مرة، أجرّ ورائي قاطرة من الأحزان. أحمل على عاتقي المهترئ أصداء هذه المدينة المريضة، وتلك رفيقتي، حلمي، أنمو في صدرها المسلول لعنة مملوءة بالقهر والغبن.

ـ الضفادع تنوي اكتساح الخريطة، ونحن لا نكتم السرّ.

تعود المتسولة تجر سرابيلها إلى المكتبة وتجهش في أذني. كنت مأخوذا بها حد الجنون.

ـ هذا زمانهم يا ولدي. أنت هو أنت. قَدْ مَا عِنْدَك. قَدْ مَا تَسْوى.

ـ أخرجي أنتِ. مسختونا. أخرجي يا الـ. .

زمجر المكتبي في وجهها ثم رماها بعنف في الشارع. يطالعني الحزن من جديد، وهذه المنسية تعانق أسفلت الطريق المندّى. تحمل الرفض طعنة معبأة بالسخط والأحقاد.

- ٦ -

كانت الحافلة مثقلة الأحشاء، تقطع شارع البحر.

- البرد سوس عظمي. أغلق النافذة.

صاح أحد الركاب. نفس الصوت الآمر يأتيني على الهوامش. يختلط مع مخزون الذاكرة.

تمزقت ذاتي بين فقري وفقر الآخرين.

تطالعني أمي والليل يقطن ذاكرتها وحضورها. تتمتم بتثاقل العجوز.

- إيه يا ولدي البارح جورج الرّومي، واليوم جورج العربي.

ذاك أفعى وهذا علقة.

كانت تقولها وعيونها منزوعة تتمرغ في معاصر الزيتون.

- أبوك مات واقفا كالنخلة.

الكل يُنتظر إلا ميتا معبأ بالشهادة، كان أقوى من أن يُنتظر.

- ٧ -

كان زمن النار. القوافل العائدة من جنازة الحروب. والأطفال الذين ولدوا وعاشوا بدون آباء. كان أبي يكتب على الساعد الموشوم برائحة البارود تحيى بلاد النور. لا تعجبوا، فقد كانت حلمه الذي يحمله طفلة مطعونة حتى الصميم، وكم مطط أحْرفها بالأحمر على الحيطان. جذوع الأشجار. في كل مكان.

بدأ طفلا رومانسيا. وانتهى في الغابة ثوريا. حين يتذكر طفولته يضحك من نفسه.

هكذا كانت تتحدث أمي.

تعود الأشياء العالقة في الحلق. مُرّة مرة كالدفلى.

ياعمي ما تقتلوهش، هذا أبي.

لوجه الله اتركوه وشأنه، تصرخ أمي.

أوف لا تخشى شيئا. فالخنجر لا يجرح والرصاصة لا تقتل.

يرد الرجل المدجج بالحقد والأسلحة.

ثلاث جمل تحفظها الذاكرة بشكل غريب رغم صغر سني آنذاك.

الأولى تقطن ماضي الحاضر. يسكنها جرح قديم، قلتها حين رأيت أبي يتمزق على الحائط الموشوم بخطوطه الحمراء والبنادق المعماة تتسابق لصلبه. كانوا كثرة. يحيطون به كالنمل.

الثانية قالتها أمي وهي تقرأ سرّ الزمن القادم، الثالثة.. اذكرها جيدا، وهذه لا أحكي عنها لأن أصحابها يبيعون أنفسهم في شوارع باريس المغرية. وبعض النسخ منهم تصيح في شوارع مدينتنا.

أسبرين الجوع عندنا.

هؤلاء الناس صعدوا في آخر أيام الثورة إلى الغابة ونزلوا في اليوم الثاني ثوارا.

إيه يا علي بولسان البياع. المصنع والاستغلال.

فاجأني المكتبي بزعيق جديد.

- مالك حل فمك. عمرك ما شفت كتب؟ القانون يقول: إشترِ وإلاّ أخرج.

- الكتب كثيرة وجميلة وغالية وعليّ أن أختار.

ماذا أقول. السيد ضخم كالفيل وسيلتهمني في لقمة واحدة. قبل قليل عملها مع المتسولة.

دينار يحمله جيبي وهذا الديوان: **الكتابة في لحظة عري** لصديقتي التي أتعشق صوتها مخبوءا بين سواكن الأخبار وهدهدة الليل، يساوي يوما من حياتي. اسمعها الآن، أشتهي فقط أن اقبل عينيها قبل أن ترحل عن تربتها:

متعبا وجهك كان.

مغلقا عمري كان،

والتقينا ذات ليلة..

لم نلتق عمري منذ أن سرقتك المدن الأخرى.

أجُرّ ملامحي في مكاني وفي عيني يرتسم جليا مفترق الطرق.

وراء الزجاج، كانت الطيور تهجر ساحات المدينة، والأمطار ثقيلة تتلون بلون هذه الشوارع الشتوية. ورفضي يسكن صدري، يضم إليه أشعار المتنبي وناظم حمت ونيرودا الذي أدلى بشهادته عن الحياة في عمق القهر، وكل من باتوا منسيين في أدغال هذه المدينة، على هوامش السجون.

(أمن أين يأتي هذا البرد السامُّ).

أتلوّى من جديد على مرأى من غربتي. أتعرّى وأغوص في الأشياء الباردة.

- أبي ذلك العامل البسيط. القادم من أغوار هجرته. جاء ليمارس شهادته.

من يدري. قبل موته كان حقده الثابت في قلبه يلفظ الزمن الروتين.

- إيه.. زمان ذاك.. أبوك يا ولدي قطعته الكلاب عند الأسوار.

تحكي أمي ومرض مسنّ ينمو في جسدها.

- النار تأكل الأخضر واليابس.

- أسمحنًا أخي. رايحين نغلق المكتبة.

زعق المكتبي في وجهي.

وجه النحس. الله يلطف. أشتهي هذا الديوان. قبل الخروج، عصرت جيبي جيدا فتراجعت يدي تضمّ الفراغ. انتزعت نفسي من سهوها وغادرت المكان.

كان المطر يزعق تحت أقدامي، والفقر ظل يكتسح خطاي. كنت أنبت في وحل الحزن وأتشجر براعم تحت هذا الصقيع وفي رأسي ألاف الحكايات لصغار العالم الجديد. ألف حكاية عن الذين مضوا.

سيقطفوننا ثمارا عندما نعلق على أسوار المدينة وتنعتنا الأصابع الزائفة. رفضوا القناعة، ومعانقة هذه المدينة.

ـ أين عيونك؟ دستني كالجرار. ما تشوفش؟ أعمى؟

ـ البرد حزَّني. قلت لك أغلق النافذة وأنت لم تفعل.

أغلقها بعنف ثم جلس. كان يحمل قسمات طالب مثلي. في دماغه بعض الأشياء. في دماغه بعض الأشياء التي يعاقب عليها القانون.

عدت إلى حضوري كانت الديدان تتآكل في جسدي. حاولت أن أحدد موقعي. أين هذه الأشياء التي رأيتها.

أرفض المدينة. والفقر. والغربة.

(أنت بورجوازي صغير لم يفهم بعد نفسه. لحظة ضعفك تأكلك.)

كانت الحافلة مسرعة رغم أن بطنها كان يحمل عالما متداخلا، ووجوها سطرتها التجاعيد وهزتها أزمنة الحزن. عمال. فلاحون. طلبة. مسحت الزجاج المندى. كنا لا نزال نعبر شارع البحر الطويل. كانت عيون الركاب موزعة نحو البحر الأزرق المملوء بزيت البواخر. هناك بعيدا سفن تنأى. وهذه الأشرعة البيضاء ستعود يوما معبأة بأحلام الفقراء. ستعود ويستقبلها أبناء العالم الجديد.

في هذه المدينة، عندما تترعرع رفيقة. سيصغر حزني رغم الخدوش.

كان صمتي يحتقر هذا الزمان، وأذرعة النهار تتكسر على جدار الليل المعتم. إنها الظلمة تأتي. إنه الفجر، قادم في فمه رَغْوة الحليب.

اقتربت منه برأسي. كان يريد أن يهمس في أذني بغضب عامل بائس.

كان الرفض في جل العيون يتمدد وينمو خفية.

الليل يسطو على الساحات الوسخة هي الأولى. دائماً هكذا حين يتعلق الأمر بالظلمة. ورفيقة مغتالة في هذه المدينة تحمل وجهها الممزق حلما منذ الزمن الأول الذي انهار جريحا في أحد الأزقة التي لا تعرف الشمس.

ـ **المحطة الأخيرة يا أولاد. انزلوا.** . Terminus . .

صرخ الجابي.

ـ **أخي من فضلك. لم تبق إلا أنت.**

وحيد في هذه الحافلة كبطل مهزوم. لقطتني كغيري ثم عادت على أعقابها، تتسلق الشارع الذي قدمت منه.

كان الضباب قد بدأ ينتشر. أمشي متوحداً بين ضلوعي أبحث في هذا العالم المهزوم عن رفيقة. أحمل الحزن العتيق وشما أزليا، فالمتسولة مدت يدها وقطنت فظلت تلعن في السر والعلن.

ـ **زمانكم أيها الكلاب. لكن الدنيا تدور.** . .

في زاوية ما من أحلامي التقيت بمريم مع جماعة من الممزقين. رقصنا جميعا حفاة عراة على الجليد، رغم النور القليل، والقلب، هذا الحزن الأخضر الذي يتفرع في الجسد.

مارسنا الغربة من أجل حلمنا. وعشنا رغم استحالة الموقف. كنا نشكل دوائر مجنونة وننشد كالأطفال أغاني المطر والفجر الآتي. نلبس الحارات المنسية على الهوامش. في المحطات البعيدة، وراء العوالم

الزرقاء المصابة بوباء التيفوس، حيث الحقائب تهرب نحو المرافئ. تنمو على أكتاف المهاجرين خرائط حمراء لا يتوقف امتدادها.

كنا نجوع. كنا نرفض. كنا نثور. كنا نموت وبصمت نولد. كنا نحيا. كنا نعشق في اندماج دائري رائع يذكر برقصات الهنود الحمر.

ضحكنا وسرنا في قلب الشوارع نقبل مدينتنا. وأمي تعانق المتسولة والرفيقات اللواتي لا يحملن إلا الحلم وبزة العمل.

ـ كنت حلما يهرب من شوقه.

كان الضباب وكنت لا أزال أمشي. اجتررت ذاكرتي وحضوري فعرفت أن العالم لن يكسر قيده إلا بممزقي تلك الذاكرة وهذا الحضور.

عدت إليها. من دفء فراش الحلم. طالعت مريم، رفيقتي في العمر، وجهي النابت من حصى الطرقات، وعيناها بحر هادئ. تهدهد ريح المساء، سفنه العائدة من عرس الدم بأحلام الفقراء.

قبلتني بعنف حين جلست اقرأ في أخاديد وجهها المشوه. ثم قالت:

ـ من يعشق يجوع. يحترق. ويحلم. فلا تقنط.

ـ ١١ ـ

كان البرد. المطر. الليل.

وكنت وحيدا كبطل مهزوم بدأ يكتشف ضعفه.

ومريم، رفيقة، بعيدة في آخر الحلم وبداية الفجر.

وهران ١٩٧٦

كاتيا..
متاعب الإقامة في العراء

إلى تلك النجمة التي حين حاولت أن أعانقها،
ولأول مرة، احترقت بين يدي.

- ١ -

كاتيا..

كان اسمك غربة وكنتِ سعادتي المسروقة من القتلة.

لم يكن مجرد حلم، ما حدث بيننا.

في المساءات الباردة أتذكر أني كنت حزينا. وأني كنت وما زلت أحمل في خاطري جرح الرغيف وعقبات الديار العتيقة وبؤسها. وأدرك جيداً أني يوم دخلت أزمنة الاقتحام يا كاتيا، لم أكن صغيرا أبدا.

في المساءات الباردة أحس بضراوة، أنه كان لي قلب ينزف، وما يزال، كسيف صلاح الدين. ومع ذلك، لقد كان استثناء قدريا أنا التقينا في حدائق بلدتنا، وأننا مارسنا طقوس الكلمات الخجولة وتجاوزنا الأحقاد القبلية. وأننا اندغمنا مع بعض كالحرف الواحد رغم شقاء اللحظة.

- ٢ -

هاأنذا الآن، يا كاتيا واقف عند ركبتيك كالحمل الصغير. أتأمل وجهك المغطى بألف قطعة قماش بيضاء ثلج.

فحين دخلت عليك. كان ورائي عرش ينتظر العودة السريعة وفي

يدي بقايا بقع حمراء من دم الطعن. صدقي أني في تلك اللحظة وهذه، أحس نحوك بشيء يشبه العطف؟

هل بإمكاني يا كاتيا أن أزرع في رحمك كل حقدي القلبي الموروث. فأنا لا أمتلك الجرأة الكافية للقيام بذلك. ومع هذا وذاك، قد أحاول يوما تحت ضغط اللغو الصيفي، وتهديد سيف الجد المعلق منذ زمن على حيطان بلدتنا الهرمة.

صدقي بأني سأحاول، ولن أندم وقتها إذا فشلت.

- ٣ -

زمن مر. لم أكن أتساءل.

ترى، يوم؟ يومان؟ سنة؟ قرن؟ وأدرك الآن أن في الدقيقة كان عمري. هذا العمر الذي قضيته أبحث عن رئتي التي أكلتها بوابات المدن الغربية وليالي الشام، ومطاراتها القذر.

تمنينا العناق وحلمت ذات ليلة أني حبلت بك. وظللت يوما عن يوم انتظر لحظة الولادة، ولكن يا كاتيا، اللحظة طالت. حتى أصبحت سفينة، أكلت ربانها البحار. ومع ذلك، مدرك حتى القلب أن الولادة، ساعَة لا ريب فيها.

تمنينا العناق يا كاتيا. ويوم التقينا وراء حيطان الجامعة، وكانت في عينيك تنام غابات فاتنة. شعرنا أننا غرباء كنا، وأن أشياء كثيرة ما زالت تنقصنا.

وأن بيننا سحرا ودموعا، ورؤى. وأفراحا صغيرة خلفتها قسوة الرحلات والأسفار. نمت على كتفي. كخروف صغير مخير بين الذّبح

أو الهروب إلى غابات السرو والبلوط المخيفة، وكنت مجبرا على اقتحام هذا الزمن بكل أحزانه وخوفه. غامرت. عيناك وضحكة أتذكرها كلما فاجأتني أحزان ليالي الشام وبرودة الأقبية التي كنا نسكنها. غامرت لأني لم أكن أكسب شيئا.

فقراء ولدنا.

فقراء تعلمنا.

وفقراء، قد نموت. وماذا بعد يا كاتيا؟ فالخناجر مسنونة، ورجال الطعن يتأهبون للمقتلة.

ـ ٤ ـ

برعشة المفعم بلذّة البحث عن صدر امرأة يعشقها. تلمست وجهك ذات ليلة، فعثرت بين تقاطيعك على أفراح يابسة كشجر الرِمان. لم أسأل، فقد كنت حزينة في تلك الليلة. وما تزال تنام على جسدك أختام محطات الحدود القبلية التي تمنع الحديث بين رجل وامرأة.

حاولت أن أغوص داخل عينيك الليليتين. فعثرت على وجهك العربي، قد غاب وسط عذابات الصرخات وبرد المحطات المنسية والليالي القطبية التي أجبرتنا على النوم في ساحة واحدة.

وأتساءل بحب العاشق والمعشوق، الم تملّي بعد أعتاب البوابات الموصدة؟

- ٥ -

آه يا كاتيا كم هو شَرِهْ هذا الزمن. فحين تداهم لهفة الحب أشيائي الجميلة. أتذكر.

صغيرين كنا، كنا يوم دخلنا البحر عرايا. وحين خرجنا كانت عيوننا على الميناء. نحلم بسفرة الأطفال. لكن وقتها، لم تكن الشمس معنا. تحولت إلى كرة سوداء تقتلها الحركات المشبوهة. فعدنا مكسورين من رحلتنا، نبحث عن شمس رقيقة، تركناها بين حيطان المسَاجد. كومة لحم عند حكام القبائل العربية. تنزف. عارية. تَعضّ غطاء ما لتلد الحب بدون قابلة.

حين تداهمنا أشياءنا الجميلة نحس أننا أطفال صغار. كنا وما نزال.

- ٦ -

بكيت ذات ليلة على صدري على غير عادتك. توسلت عبثا أن تصمتي وتتركيني أحكي. قلت سأحكي يا كاتيا.

أن الوضع لو كان طبيعيا ما سقطت أشياؤنا الجميلة ذات يوم في قمامات الحارات الباردة، التي لم تعرف بعد لون الشمس.

وما كان يجب أن تأكل المسافات البعيدة أفراحنا الصغيرة.

ليس سرا أن أقول أني حزين. وليس عيبا يا كاتيا أن يقول المرء أني أحبك. افتقدناك. افتقدناك. افتقدناك. يا طفلة لم تشبع من حليب أمومتها. . فطمت يوم نزلت من الرحم قطعة لحم باردة.

والآن، هل تعلم وهران أنها ذبحت قلبي وأنها عبثا حاولت محو ذاكرتي؟

وهل تعلم الشام أنها علمتني كيف أقدرك ولكنها أفسدت طبعي؟

ما زلت يا كاتيا آمَلُ أن أجد بين نهديك فرحي المقتول ورجولتي وأزمنة الفرح التي افتقدناها.

تعالي الآن يا عمري المنهك. انزلي من الرحم ثانية ولنمش نحو الشعلة نقتحم الفجر. فهذا الآتي المتستر ببطنك قد يكون نبيَّ الزمن الذي وعد بالأقلام الملونة والخبز والملح وأشياء أخرى جمالها يثير الدهشة.

ـ ٧ ـ

الأمطار غزيرة كانت. وكنت متسمّرة عند باب حجرتك الصغيرة. دخلت مبللا بالحزن من رأسي حتى أخمص قدمي. كالطعنة. كالسيف الذي عانق جثة. وحاولت معك أن ألم جراحي وجراحك يا مدينتي العربية المهروسة.

حصاني البرق، وأوراق صغيرة وكتابات ممنوعة عوقبت عليها مرتين ـ الأولى حين فوجئت ذات ليلة مع امرأة كان جمالها غابة. تقرأ على مسمعي بقايا حروف قصيدة مات صاحبها لبن القضبان، ولم ينهها. والمرة الثانية ـ داخل الجامعة في بداياتي الأولى. في يدي أوراق قدمها لي طالب أكلته سيارة عسكرية ذات فجر.

كاتيا. يا مدينتي الطيبة. الذين فتشوك قبلي كانوا قتلة.

قتلوك وهزموني من الداخل.

الذين اقتحموك وأنت قطعة لحم سخية. أفسدوك يا مدينتي المحروقة.

ومع ذلك يا كاتيا. صدقي آني ما زلت أبحث عن وجه كنت قد تعلمت منه لذة النوم على أسمنت الأرصفة الصقيعي. وتعلمت منه دمعة الرغيف. وكم كانت قاسية دمعة الرغيف!

هي وحدها المؤهلة لأن تصبح ترعة صغيرة، فواديا، فبحرا، وعالما من الحب تصير.

ـ ٨ ـ

لا تقولي أنك أصبحت كبيرة. وأن نهديك البدويين امتلآ فوق العادة، ونضجا قبل الأوان.

فما زلت يا شقيتي الصغيرة، ويا صديقتي الطيبة، طفلة ترضع أصبعها، لم تشبع بعد من رجفة الرحم. طفلة صغيرة، ما زلت في عصر فيه الفقر شهيد وشاهد عن الحب بحجم جمال الرغيف وقطرة ماء الربع الخالي.

أتذكر أنك سألتني ذات مساء بارد كالطعنة، هل أحبك.

سألتني وكنت شقيا لم أحلَّ بعد المشكل القائم بيني وبين الجوع. فابتسمت، ثم كطفل بكيت وتساقطت الإجابات في حلقي. حاولت أن أمزقك كقطعة من قماش، ففوجئت صدفة بأني كنت أمزق لحمي.

تذكرت يا كاتيا أننا صدفة التقينا وكان وجهك أكبر من وجه امرأة. وكانت عيناك مواكب أفراحي الموسمية. وصدرك العريض كان مينائي.

ذاب كفك داخل قلبي حين مسحت عن جبهتي وصدري عرق الحزن. تذكرت وتذكرت احتراق الزمن. كنت صغيرا. أخاف أن أتعفّن قبل أن اقتحم صدرك الذي أوصدته في وجهي كل القبائل العربية.

فلثمتك بحزن وبكيت.

- ٩ -

في المساءات الباردة، أحس برتابة الدوائر المغلقة ورداءة الطقس الذي لم يتغير.

ومن قسوة الوحشة، أضاجع حزني، وأحس به كالبرد ينفذ بين ضلوعي.

هو الحب يا صديقتي الطيبة، كالسف يزرع في رحم العقم عمراً آخر كالوردة. فلا تحزني يا كاتيا، قد يزيدنا الجرح جرأة.

قليلا ما تهزمين وتسقطين حتى قبل أن ألثم ليل عينيك.

يوم التقينا صدفة ولأول مرة، في الهزيمة، كنت صغيرة كالنملة وعظيمة كالنور. أتذكر الليلة التي ولدتني وتعيد في اللحظة إنجابي، وأننا مارسنا الحب في ليلة باردة كقطعة ثلج. كان الفصل شتاء، وكانت الحجرة صغيرة ولكنها كافية لاحتضان طفلين. لأول مرة لمستك بهذا الشكل. أحسست في الظلمة بنار تصعد من عينيك. مددت يدي أكثر. ارتعدت بخجل. تمتمت وفهمت انك كنت خائفة.

احذر.

قلتها ثم سكت قليلا.

احذر حبيبي، أرجوك. غشاء البكارة مثل جناح فراشة، بسرعة يتحول إلى نثار.

كررت مرة أخرى.

لمستك بحنان، فتلاشيت قطعة ثلج على صدري الملتهب. مارسنا الحب وكنت تبكين. وكنت أعرف أن رؤساء القبائل كانوا يتأهبون لذبحك من الرقبة، مع أن أباك كان طيبا للغاية. وعدتك بأننا سنتزوج في الصيف القادم، ولأول مرة أضع فوق رقبتي سيف الوعد.

ضحكتِ.

ارتسمت على شفتيك بقايا ابتسامة.

- ١٠ -

دعيني أموت. أجن. أجوع. أرقص. اعري نفسي عن آخرها. لأدرك في الأخير ويدرك الناس معي، أني ما زلت أحيا وأن علي أن أكون بدوي القلب. رجلا يسقط تحت نهودك العربية. كالمجنون أشد صدرك إلى صدري. وعبثا تفضي بي الحرائق نحو البحر.

من لم يمت مسكونا يا طفلتي بحب النور، سيدرك يوما كم كان غبيا. أبوك كان الضحية الأولى. طيب القلب. وكنت ضحية القبيلة، الثانية. فقد وعدت أن توزعك في الصحون لحما باردا على شرف القبائل العربية ليلة أعراس البلدة.

ـ ١١ ـ

اسأليني الآن يا شام. من منا خان؟

ومن منا كان يحمل قلبا كالشمعة؟

فـ كاتيا نبؤه صادقة وضحية هذا العصر ونتاجه. هكذا قالها طالعها.

وهكذا قال الآتي. دعونا نعيش صدق اللحظة. ومن يدري؟ فقد كرهنا صعوبة الإقامة في المدارات المغلقة.

ـ ١٢ ـ

في ذلك الفجر خرجنا من نزلنا الفقير نحتضن بعضنا كعصفورين.

ولم تكن معي هويتي حين أوقفنا الحرس الشرس، المتربص في الطرقات. أوقفنا خفاشا يطحن الحجر بعينيه. تناسلت أزمنة الرعب فيه. اقتحمنا بسؤال:

ـ الهوية.

ـ نسيناها عن غير قصد.

أكدنا.

حين استيقظت فوجدت نفسي مرميا في مؤخرة سيارة سوداء. وحاولت عبثا أن أتذكر أين تركتك. في المساء حين التقينا. بكيت في حجرتك. أحسست بالغبن. بدويا كنت، أحمل كل طقوس القرية، لم أتعود بعد شراسة هذه المدن الحجرية.

وبكيت أنت بمرارة.

أدركت أنهم ناموا على صدرك مرغمة. واقتسموك كما تقتسم قطعة خبز. كانوا عشرة، فتحملتهم بشقاء. وعندما استنزفوك، أطلقوا سراحك جريحة القلب. عصفورة مطعونة من القفا. أحسست بشيء أثار دهشتي.ز هل كان عطفا؟؟ غيرة؟؟ حبا؟؟ لكن أصارحك فقد حزنت كطفل يتيم.

ـ ١٣ ـ

في المطار سألته عنك. صديق يعرفك التقيت به صدفة. قال:

ـ **بخير. كان ابن بلدتك.**

كيف حدث هذا؟ انا أتذكر اللحظة مثقلة بالدم كالسيف.

خلت نفسي أني نمت في حجرك بكل أوراقي وأوساخي، بعد أن هربت من ثقل المدينة وشراستها. لقد داستني كل القوافل العربية المتخمة بكنوز البرلمانات المزورة في أروقة الحكومات القبلية.

قلت للشام التي قتلت فرحي، وكنت سكرانا حتى القلب. من منا خان يا شام؟ أنت أم أنا أم صدفة الأقدار؟

وكنت بعيدة. بعيدة أكثر من تصوراتي الضعيفة. وراء البحار السبعة.

وذات ليلة. لا أتذكر الساعة، بدون قصد هربت إليك، ابحث عن نهد حي، ما يزال يتدفق حبا. ركبت أول طائرة شممت فيها رائحة الوطن الهارب من قلبي وهربت إليك.

وحين وصلت. وجدته هناك. تنام على صدره طفلة جمالها يثير

الدهشة. مجبران على النوم على كراسي هذا المطار المهجور. سألته هذه المرة أيضاً عنك. كان يعرفك ويعرف بعض ما في قلبي، فقال:

ـ لا تسأل. بألف خير.

ـ ١٤ ـ

قاتما. قاتما. يأتي يوم الطعن قويا، كالسؤال المحرج. قال بوقاحة:

ـ رقبة ابنتي تساوي مليونين.

كان جدك. شيخ هرم، مصمم على أن يبيعك بدل أبيك المتنازل عن أملاكه المنسية.

دهشت، وكنت طالبا فقيرا، في حالة اضطرارية للزواج بامرأة أحبها، وارتكبت معها كل حماقاتي الصغيرة والكبيرة.

أصر على بيعك. ولم يكن لاحتجاجي أي معنى.

فتمنيت فقط أن أعود إلى يومنا الأول. وأختطفك كالعصفورة وأهرب بك على حيطان الشام الهرمة. تقتلني يوميا وأقتلها، ألف مرة.

لقد كنت صنمها المفضل، وكانت الصدر الدافئ الذي يستقبلني كل فجر وليل.

تذكرت لحظة البيع والشراء. كم كان بسيطا، يوم التقينا صدفة. ومارسنا الحب صدفة. ارتكبنا حماقاتنا الصغيرة صدفة. وصدفة مارسنا تهويمات المعابد والصلاة، وأشياء أخرى أغلى من الوهج وأكبر من عناق وموعد.

وأخشى الآن تحت هذا الإصرار. أن نجبر على الموت كل واحد في زاوية. لا. لا.

كاتيا... عمري.

سيكون طفلنا الذي ننتظره بشغف هدية الخريف القادم وتاج الفرح. لا تحزني لكل الآلام، أفراح صغيرة تولد مع الفجر.

ـ ١٥ ـ

مرة أخرى يحدث الذي كان يجب أن يحدث.

خرجت من البلدة ومن رتابة جلدها. رقصت. غنيت. وتصاعدت أبخرة الحج وأشياء أخرى تشبه رائحة الولادات المتعفنة.

أهو العرس يا كاتيا؟ أهو جنون الشوق يتجلى؟ لحظة الفرح المشوه بفظاعة؟ وكقطعة لحم باردة، كجثة قذفت عند قدميك. ثم أغلقوا الباب ورائي ووقفوا ينتظرون.

تأملت. ياه.. كم كنت جميلة في عطاءاتك البيضاء. كم كنت مغرية يا كاتيا لدرجة أن يفقد المرء الحد الأدنى من تصرفاته المعقولة. ومع ذلك، كنت أحس بشيء يشبه رائحة الحزن المحروق يصعد من قلبي. فمي. أنفي.

وفجأة. تذكرت كالطعنة، سيوف القبيلة والكلمات المشحوذة لقتلي إذا بقيت بجمودي. فحاولت أن اقترب منك أكثر من أي زمن مضى رغم أني أحسست بالغربة تنمو بيننا وبوادي المخاطر يقف بيننا، إن عبرناه، قد نذهب ضحية حماقة صغيرة نرتكبها بوعي أو بدون وعي وإن بقينا نتفرج ستسحبنا القطارات الهاربة نحو المنافي.

أسمع صوتك يأتيني من بعيد منكسرا مثل موج البحر الموحش:

ـ القتلة في كل مكان. يتوعدون ولم يغفروا حماقة حبنا المجنون. لا تستسلم ولو علقوك على أخشاب المنافي. لا تستسلم ولو أوصدوا كل الأبواب في وجهك ورموا بمفاتيح القلب في عمق السواقي الآسنة. لا تستسلم وتأمل قليلا ما يتخفى في عيوننا.

كاتيا... ميما الحنونة...

سأحاول مرة أخرى، وإذا فشلت في الوصول إليك اقبلي انتحاري.

الجزائر: ١٩٧٩

لحظات باردة،
في يوم استوطنته الغربة

الحزن الصقيعي يتثاءب في داخلي.

أنا اليوم أحمل في رأسي علمي المشوه طعنة في القلب، ورفيقتي حفيظة تسكن هوامشي رغم أنفي. أزحف متحاملا على كآبتي، يقتفي خطايا ظلي الجائع. ذبابة وسط هذه الشوارع التي تئن ثقلها. تصطخب في رأسها الصغيرة أسئلة العالم المنهار. أصرخ في صمتي العاري، بعنف، على عاتقي سنون السياط. أشتم هذا الشارع المختنق بصوت تكتمه الأسرار.

ـ حرقتنا يا غربة النحس.

١ ـ الحزن العميق

هذا اليوم ثقيل كأيام الحشر. البرد والمدينة هذه المومس العمياء مصابة بداء التيفوس. أتقيأ قلبي الإسفلتي، هذه الزوبعة الطائشة على أرصفتها المثقلة بأنين الجياع.

هذا الصباح لفظتني الجامعة أحبو على وجهي. وجدت نفسي هاهنا أجمع شتات الذاكرة المهشمة. مرميا وسط هذه الأسواق المزركشة بأصباغ الفقر والوسخ المزمنين. مصاب حتى النخاع بداء الحزن العميق. في صدري أنفاسي المضغوطة وغربتي المطلقة.

ـ عليك اللعنة يا شوارع النحس.

ـ آه لو تعلمين يا حفيظة كم هي شرسة هذه المدينة.

٢ ـ مرض في الذاكرة

قذف بي حضوري بعيدا عن هذه الأرصفة المكتظة بالجياع. كانت ذاكرتي تهجر خلف جدار المدينة. يزعق المعلم الأكبر في جلسته الرفيعة مشكلا المعادلة التالية.

كرسي عالٍ استوطنه دماغ منحط.

ـ كان. كان. كان...

استرسل في البلبلة الروتينية.

تدخل طالب. عقله في تناقض تام مع جسده. في رأسه تنافست العناكب. يمطط كلاما عاقرا كأفكاره. يُحِبُّ الكلام، والبنات والألبسة.

ـ الجميل. حين يمدحون الخليفة يغدق عليهم بالمال.

أوف. كلاهما كان نموذجا للغبي النموذجي.

العالم يتقهقر في دماغي. فالغربة شيء حتمي هاهنا. كنت خارج الزمن، أفكاري مرمية تلحسها الديدان. أتمنى لو أتنفّس. لو أملأ رئتي بالهواء الطلق. لو يتّسع قلب حفيظة لكل هذه الهموم التي تأكلني وتأكل هؤلاء الناس البسطاء.

ضحكت. لم أتحمل. نفخت روحا في الجمرات المتقدة. التراث. فقد نطقت غباوة واخترقت بعض قوانين اللياقة المتعارف

عليها. ولد عاق وحق محمد. النتيجة الحتمية. سيركلني لا محالة. في مثل هذه الحالة تكون الرّكلة بركة.

٣ ـ ذات صباح

فتحت عيني هذا الصباح على يوم ينز بالرطوبة. وجهي يتكدر. سأخسر نصف يومي أمام هذا الخطيب النموذجي. عرفت أني إذا استمر الحال سأموت قبل ابتداء النهار. فبيني وبين هذا الرجل هوة أجيال.

ـ والنتيجة أيها الأخوة. كانوا جماعة من السارقين لا أكثر.

ـ أين إنصاف الحق! لم يكونوا كذلك.

ـ عن أي حق تتحدث يا ابني؟

ـ ألم يرفض الصعاليك القبيلة الضيقة؟

نطقت طفلة تسكن الجبهة الشرقية تؤيدني. عيونها مضطربة مبعثرة على هوامش هذه الخارطة الصغيرة. سئمت جلدها القديم.

ـ حفيظة لا تخيبي ظني فيك؟!

قالها ثم التفت يواصل درسه.

تزحزحتحفيظة. اقتربت مني. همست في أذني:

ـ بحر العلم هذا لا أدري من أية مجرة نزل علينا؟

يلمحنا من تحت أهدابه. حاولت كبت ضحكة عانت من الضغط حتى انفجرت.

يدور العالم في عينيه دورة غير عادية. تمطط الغضب على هيكله بزة ممزقة في كل اتجاه.

ـ يا الله اطلعوا برا. إيه ده؟

لم نرج البقاء ولم نعتذر.

عانقت برد الصباح بصدر موشوم باليأس. أتحسس وجهي المشحون بالضياع. أتثاءب ضجرا. نوغل في أبعاد الأسى الهندسية. الحصى يئن تحت أحذيتها المطاطية.

ـ هه. صمتهم مقبرة. سأرحل إلى المدينة.

ـ أرافقك. أريد أن أنسى الخراب الذي يحيط بنا.

لمحت عينيها الرائعتين اللتين لم تستقرا على أي لون. أحسست بشيء يذوب في داخلي.

لم أمانع.

كانت حفيظة بعضا من جمال هذا الصباح.

٤ ـ في المدينة

نهيم على وجهينا في المدينة. يسطو علينا هذيان وارتباكات لم نكن نعرف مصدرها. ربما لأن المدينة بدت لنا صفراء؟ صفراء كوجه الأستاذ الذي طردنا من قسمه!

ـ أرأيته؟

ـ كلامه ثرثرة في الفراغ. لا تهتمي.

ثم حدثتني حفيظة عن أحد النّماذج البشرية الجوفاء التي يكثر لغوها المجاني عن الهزائم العربية وعن ماركس. وأمام الممارسة تنغلق على نفسها كالقنفذ. في رأسها يجثم التذبذب المزمن، لسانها مدلى وراء سحر المال والنساء العابرات.

ـ آي. . . نطحت شيئا ما. عفوك أخي، أعتذر كأني أعمى. لم أرك!

قلتها عفويا وواصلت سيري. أجر أقدامي.

ضحكت حفيظة. حاولت عبثا أن تكتم سخريتها مني. .

ـ كه. كه. نطحتَ عمود النور وطلبتَ منه العفو.

ـ ؟؟؟. ؟؟؟.

التفت. لم يكن هناك بشر. كان العمود طويلا. تتدلى في قمته لمبة مغبرة.

٥ ـ شهادة ضد العصر

كنت خارج الزمن بفعل الغربة التي انتعلتني منذ اللحظة الأولى هذا الصباح. عدت إليها. تفتّتِ ابتسامة على شفتي رغم الكآبة التي اعتلتني. المسافة التي تفصل وجهينا تقلصت. طالعتها في اشتياق رهيب ثم عدت أطوي يدي في كفها كالعصفور.

الضجيج يخف، والحافلات تتسلق الشوارع في دورتها الأخيرة.

أذوب في هذا العالم المسحوق. في مخي تتوالد ديدان بألوان قزحية. وحفيظة غائبة على ثيابي المتجعّدة. بين النوم واليقظة. تمارس لحظة حب رومانسية. همست.

ـ عيناك وطني.

ـ عيونك عمري.

قلت:

ـ طفلتي. . . سنشهد جميعا أمام العصر القادم براياته العالية، أن مدينتنا كانت خائنة تعلم عشاق ناصيتها الزرقاء ممارسة الهزيمة. وتغتال أحلامنا في عزّ الظهيرة. أوشمي، حفيظة، هذه الشهادة في مفكرتك بسرعة، لنتذكر عندما تنسينا العذابات والخوف.

طالعتني باشتياق ثم أحنت رأسها وكتبت شيئا ارتسم على وجهها.

٦ ـ منظر هامشي

الحقيقة تقال. متى ابتعدنا عن هذه المدينة، توغلنا أكثر في شرايينها الموبوءة.

في شارع لا أذكر اسمه. تنام على أرصفته وجوه حفرها البرد. كان سكير يدير العالم بيديه، أو على الأقل هكذا خيّل له. يترنح في عمق الشارع ويحاول جاهدا أن يقف قليلا عندما رآنا. تساءل بكلام يكاد لا يفهم:

ـ لا أفهم لماذا الأرض تميد بي. هل تحسان بذلك.

ـ طبعا. هي تدور دائماً. كاد رجل طيب أن يحرق، اسمه. . .

ـ غاليليو. . . أعرف دين أمه. هو السبب في دوران الأرض تحت رجلي وأكاد أن أسقط. المهم. اسمع أنت. وأنت. أعطيني أذنك يا خويا. عمك موسى صاحب الكأس والقعدة، لا ينطق عن الهوى:

إذا أتاك الزمان بضره،

ألبس له ثوبا من الرضا.

تدحرج قليلا في مكانه قبل أن يستقيم:

وشطح للقرد في ملكه

وقل يا حسرة على ما مضى.

كان أسداً في هذا الشارع، بجوفه. يحترق عالم في عنفوانه.

تدحرج من جديد. مال على اليمين، ثم على الشمال، قبل أن يجد مسلكه متكئا على حيطان المدينة:

ـ حشيتها لك يا غاليلو الملعون. لقد وجدت الحيطان. دز معهم. حرك الأرض كما تشاء، فلن أسقط هذه المرة.

سألتني في فضول الصبية.

ـ هل. هل يقيم في العراء كهؤلاء؟

ـ غرفته. هذا الكارتون الذي يرحّله على ظهره.

٧ ـ زمن الكآبة

الليل يتقيأ سواده. السنونو، هذه الطيور المهاجرة تغادر مواقعها. الفصول الشتوية تزرع صقيعها في جسدينا المتقلصين.

حفيظة ظلْ نابتٌ من حزني.

نظرتها تشلَ حركة القلب.

مصابين حتى الأعماق بالهلوسة واليأس. هذه اللعنة المضافة تتكمش في قلبينا كالدودة.

نطقت حفيظة. عينيها معصوبتين بالذكريات. أحزنتني.

ـ أتعرف كم أساوي في عيونهم؟

ـ لا تهتمي. ما يسواش حتى أصبعك الصغير.

قلتها مباشرة بدون أن أكلف نفسي عناء التفكير.

هي تدرك الحقيقة جيدا، لكنها تحمل فضولها وجها ممزقا بفعل الغربة. يكرهونها لأنها تتكلم كما تشتهي وتفكر. شيئان مرفوضان قلبا وقالبا. المدينة تحب المدجنين وحفيظة فوق أن تدجّن.

حزنت رفيقتي.

ـ لا تقطبي. هذا زمن الكآبة. كوني فوقه، لا تحته.

نرفض النباح هناك وما أكثره. فنلجأ إلى المدينة. نرفضها لأنها مثقلة بالجياع الذين يستدفئون بحملهم صقيع شوارعها. مملكتنا تحت تخمة العرش لا تساوي فلسا عقيما.

جسدي يقطر غربة. الليل هذه الزنزانة الرهيبة فزع نلبسه حزنا عميقا. الماء يقهقه تحت الرفس. اليبوسة تصعد من أقدامنا. المدينة في ذاكرتنا مفلسة تنز برائحة الأجرام. كل ممراتها محروسة.

البارح. وجدوه مرميا في الساحة الكبيرة.

كانوا كثرة. سقطوا عليها كالذباب، ومزقوا رفيقها.

قطبت. فديست، المدينة لا تسمح بالوقوف ولا بالتفكير لحظة واحدة.

الليل يطردنا. ويغرينا.

طفلتي. إن متنا فالقانون لن يصاب بهزيمة. أسرعي. تاكسي. تاكسي.

٨ ـ الخوف

الليل ينزل بسرعة على المدينة.

ضياع يقذفنا إلى ضياع، وخطوة تسحبنا نحو خطوة أخرى.

خطانا تسبق ظلالنا المنصهرة. الماء القزحي يتهشم تحت أحذيتنا. نحلم في اشتياق ونرهب الكوابيس. المدينة تعرت من زركشتها ودفعت بنملها إلى مغاويره. لكن بعد قليل ستنتهك. نظرت حفيظة جيدا إلى وجهي الفاقد لونه كان أصفر مثل ليمونة يابسة. التصقت تقيم في جسدي. متكومة كالقماش الأبيض. تتلون بحزني.

انفجرت في أعماقي يجرحها الذّعر.

نحب الليل. لكن مدينتنا لا تحب إلا منتهكيها.

تفاقمت على وجهي جرحا عملاقا. كنت في محاولة يائسة لجمع عقلي المتشتت فوق إسفلت الطرقات المهجورة. الطفلة هذه. ذات الضفائر الصغيرة تذبحني من القلب.

عيونك حلمي.

نظرتك مدينتي.

وشوقك انتصاري. لنواصل. لا شيء أثمن من الضياع في مدينة نخترق دروبها المغلقة ليلا. أية جرأة يا عمري؟

رأينا امرأة تقف على الحافة، في الزاوية، بين الظلمة وبعض النور. تحرشت بي:

ـ هل تأتي معي. سترى ما لم تره في حياتك.

أرادت حفيظة أن ترد عليها ولكني شددت على يدها. ثم أخرى:

ـ هل تعرف لذة أخرى غير اللذة المعتادة. أمصك مثل قطعة حلوى ولن أترك فيك شيئا.

عرفت متأخرا أنه شارع الموسات.

كنا جميلات ولكن ظلما كان يملأ عيونهن فيقتل اللذة والشوق.

٩ ـ العودة الإجبارية

ـ تاكسي. تاكسي.

عادت يدي تضم الفراغ. أسكنتها جيبي بكل انهزام. فالسيارة فرت مذعورة.

ـ حاولي أنت وحدك. سأنزوي. ربما... لأنك امرأة...

ـ يا حلوف... الضرورة تبيح المحظورة إذن؟ سترى كيف أغويهم في هذا الليل...

ـ تاكسي. تاكسي.

حفرت السيارة الإسفلت الزجاجي بوقفتها الحادة.

استرحنا داخلها كقطين هادئين. هزمني السائق بنظرة استفزازية. تسلقها أدراجا بعينيه، بشره يقطر جوعا. تمنى لو لم أكن موجودا... بانت له حفيظة ممتلئة كالبلوطة البرية.

هذه الطفلة البسيطة نادرة في صفائها. يعشقها الكثير.

انتشل من بين شفتيه اليابستين، ابتسامة صفراء، جافّة.

ـ إلى أين تذهبان؟

ـ لا وجهة لنا.

ضحكت حفيظة التي كانت تريد أن تقول له: إلى الحي الجامعي من فضلك. ثم مدت رأسها على كتفي ونامت. شعرت بشعرها ودفئها الجميل، فأغمضت عيني وحاولت أن أنام وأشد على كفها لكي لا أرى في الحلم غير وجهها.

- **إلى أين؟**

لم نرد عليه. لم نسمع إلى هدير السيارة الذي بدأ يتحول شيئا فشيئا إلى هسهسة رياح خريفية دافئة.

وهران ١٩٧٦

الخديعة

أحلام الرجل الذي لم يفقد ظله

- ١ -

هل هي مجرد خديعة أم أكثر؟

ياه! كم كانت المسالك متعبة وكم كانت الأيام صعبة!

ألم يكن من الأجدى المرور عبر أكثر الطرقات اختصارا؟

لا شيء يفيد الآن. المهم أنه وصل أخيرا إلى الدار، وعانقت عيناه هذا البحر بعد رحلة قاسية لا يتذكر منها الشيء الكثير، استنزفت زمنيين من حياته.

لا شيء تغير. الكل على حاله مثلما تركتَه عندما انسحبتَ من هذه الدنيا.

- دقًّ على الباب الآن، لقد انتهى كل شيء. دقًّ.

- ٢ -

حين التقيا للمرة الأولى. ذابت كل الفواصل والحدود. وذاب صقيع زمن الفراق. لكن الوطن الحلم بات أغنية حارقة محمولة في الصدر والرأس.

أراحت عيونها فوق عيونه وتكوّمت تقيم في جسده. كانت أجفانها ترسمه روعة مثلى رغم رائحة النزيف المنبعثة من أوصاله المكسوة بملح البحار.

افتح عينيكَ جيدا. هل تراها؟ زوجتك أنتَ الآن تسطر خارطة ملامحها لتتذكر جيدا. تنام جرحا مستقيما بين مفاصلك الموشومة بندوب الحبس. كنتَ تحبها ولم تكن بطلا رومانسيا قهر قلوب غواني الحارة لكن كِلاكما استوى في نزيف الآخر وطنا يعيد ترتيب وجهه. رأيتَها للمرة الأولى وكنت بحارا يمارس العيش في أقذر المواقف. لا يحمل في زاده إلاّ جوعا وأحلاما يقاوم من أجلها. يمني القلب بزوجة تدفئ ليله.

وقف يتأمل، حين قفز البحر أمام عينيه بعظمة غير محدودة. يكتشف للمرة الأولى هذه العوالم الزرقاء. وضع يده على الباب الموصدة التي لم يجرأ بعد على الدق عليها.

ـ إيه. بين البحر والزنزانة مسافة شبر، ومع ذلك يظل بعيدا.

أتدري! لقد تسلقتَ عقدك الثالث، وتخاف الآن أن لا تعرفك من كانت تحب فيك رائحة الجوع والبحر وتقاسمك الحلم. سِتّ سنوات تموت وتولد فيها عروش بأكملها. تعود إليها من جوف غربة أقبية السجون الباردة. ترتسم في عيونك المرتعشة الأبدية. كيف خرجت بأوصالك مزروعة في جسدك. التعذيب كان وحشيا. كان الصبية يجرون وراءك في المدينة بصياحهم تتقاذفك الشوارع والمقاهي الرديئة والأزقة الوسخة، محشور في خانة فاقدي العقول لأن ملامحك في الزمن هذا تلبس العري والخوف.

ـ كل أسئلتك المضنية تظل معلقة.

هذه المرة كنت جون فال جون ردم من أجل كسرة سرقها حين كان الجوع يحاصر الأركان الأربعة، والموت يضاجع آلاف الأفواه المتمردة.

ذئاب. ذئاب. ذئاب.

- ٣ -

أنت تذكرهم جيدا. كانوا ليلا من الخنافس. ساقوك وكنت ترتدي العرق كالوحوش المسعورة. عندها حملك أصحابك صُدعا جديدا في الرأس ولغما في القلب. كنت تدرك جيدا أنك سوف تساق إلى مكان من زاره لن يعود، لأن جسدك ينزف برائحة الليل، وهم يكرهون هذا الصنف من الناس. واجهتَ البحر للمرة العشرين تطلب عملا وكان الحزن يغسل عيونك. قبلت على مضض مقابل فرنكات جائعة. وبعد سنوات تساقطت عليك سيول الإنذارات لأنك خرجت من دائرة لصمت تحمل الوعي عبوة ناسفة.

أنت مشبوه.

رأسك كان مطلوبا بتهمة التشويش على راحة المدينة، وتوزيع المنشورات السرية.

حزت القيد معصميك في اشتياق غريب. فتمزقت أحلام طفولتك الصغيرة على أحصنة الخوف وخنافس الليل، شرطة النحس. تسلقت بك سيارة جيب تطوف كل الشوارع والأحياء الضيقة في هذه المدينة الموبوءة. شيّعك رفاق البحر بصمت. كان الجرح في صدورهم متوغلا حتى القلب.ز

أنزلوك قبوا مظلما وزعقوا في وجهك حين أصبحت كلا مستباحا يباع في < دور التعذيب.

- **امسح من ذاكرتك زرقة البحر.**
- **لكن. البحر روح مدينتي الجائعة.**
- **لم تعد من هنا، فلا مدينة لك.**

وبدا التعنت نابتا على ملامحك الواسعة، فانهالت عليك الأقدام من كل الجهات وحاصرتك السياط. فساح الدم غزيرا من أطرافك المغتالة في عزّ الظهيرة. ولم تكن بطلا أسطوريا فحاولت عبثا أن تمحو لون البحر من عينيك.

قلتَ في خاطرك:

ـ احذر. الألوان فيك ومنك. عندما تمحي، تختفي أنت أيضاً معها.

تذكرتَ فجأة أنك لم تكن أكثر من لون أزرق.

ـ ٤ ـ

على مسافة غير بعيدة انفجر القطار بصياح حاد. وكان يدرك جيدا أن بين قطار يجيء وقطار يذهب أزمنة تناضل الموت. خرج الحلم من ذاكرته مشوها مشلولا، وتشكلت على خارطة وجهه وجسده المرتجف فاجعة تستعيد دقائقها بآهاتها وتأوهاتها، واندمج الكل في شكل متداخل. صفير القطار وصياح السجون. ليلفظ موقفا مشحونا بالموت والدمار ولحظات من الخوف لم يستطع مقاومتها.

كان البرد رمحا ينام في جسدك، حين زجوا بك إلى دائرة البحث والتعذيب. سكنت رغم الصراخ الذي صم أذنيك، ومارست صمت الثلوج، لكنهم كانوا أقوى منك.

ـ شيع نفسك في هذا القبو.

صاح واحدهم في وجهك. يحمل في رأسه عيون قط. وجهه

مخترق بثقوب الجدري. ارتعش الرعب في عينيك غزالة تطاردها ذئبة هرمة.

تضاحكوا عندما وضعوا بالقرب من أنفك قنينة نبيذ. قلتَ:

ـ أنا لا أشرب إلا في المناسبات ومع الأصدقاء.

ضحك أحدهم:

ـ ونحن أصدقاء أيضاً.

وعندما اكتشفت بعينيك المفرغتين أن القنينة كانت فارغة، عرفتَ السر.

عاريا كفأر لم يفتح بعد عينيه، أجلسوك على قنينة النبيذ.

قبالتك ذوت امرأة... رفيقة... مغشى عليها كالخرقة البالية. تعلقتْ بأحدهم ولكنه لم يرحمها. دفعها فسقطت متوسدة أرض الصقيع، فارتسمت بين فخذيها المنفرجين أشكالاً سريالية من الدم. وأنت كالبطل المهزوم أنزلتَ عينيك من جسدها الممزق وأطبقتهما بعنف شديد. وحاولت عبثا محو الموقف من ذاكرتك.

تمتّ وندمت إذ خفتَ من أن يكونوا قد سمعوك:

ـ أولاد الكلبة، يعرفون جيدا الأماكن الأكثر ألما وقسوة.

أيقظك أحدهم ويده مضرجة بدمها.

ـ كلكم متشابهون حين يحفركم الصمت. صديقك مات. رفيقة تسقط. وأنت تتألم ملأ حنجرتك. تعرف أنك ستذوي بعد قليل مثلهم جميعا. تكلم وسنعيدك بسرعة إلى الحياة.

زنجي مغرر به. يأكل أوصالك، كان، وأشياء أخرى. الدود ينبت في كفيك وتنمو في الجسد الممزق سكاكين.

تمتمت بكلمات ارتدت إلى جوفك. كنتَ بين موت قريب وحياة صارت بعيدة.

ـ آه لو ألقاه في غابة مقفرة...

ـ وماذا ستفعل به.

ـ أنفيه من الحياة وإلى الأبد. أقتله بلا أدنى ندم. جسد المرأة مقدس، فكيف يجد لذة في تمزيقه وتشويهه؟ لابد أن يكون مريضا ومهزوما.

ذوى السّوط مرة أخرى على كفيك، وحفر السكين أخدودا عميقا في صدرك.

ـ ستموت هنا إذا لم نحصل على القائمة. قلها وسنحررك منا.

ـ عن أية قائمة تتحدثون؟

ـ تلك التي في رأسك.

ـ لا شيء في رأسي. وهل بقي لي رأس؟

وقبل أن تنهي الجملة، التوى السوط كالثعبان على جسدك. خبأت رأسك بين يديك وتركته يأكلك قطعة قطعة ويتلذذ بتقطيعك.

ـ ٥ ـ

كان اليوم فحمة قاتمة حين وصلت برقية تقول:

الشوارع هذا الصباح رحلت من جذورها لكن المظاهرة دحرت والبحارة تراجعوا. الحاكم يتوقّع إعادة الكرة ولهذا صدرت بيانات وعلقت إعلانات مختلفة في الأيام التي تلت. خابزا رأسه معلق في

المزاد العلني. كاصا، محمد الهمّ، سقط تحت التعذيب لأنه مارس الصمت. العربي القصير، فوجئ في البحر يوزع منشورات سرية فأطلقت عليه النار. حسين بوسفايا وجد ذات صباح منتفخا عند أقدام البحر تنام في بطنه وثائق خطيرة.

كان الرفاق قد حفظوا الوصية.

تكفلت المدينة بقذف الأخبار عبر البرقيات ومذياع الرصيف المزروع على أطراف الشوارع.

وأنت في السجن كان هذا يحدث، وتسقط أسماء قاسمتك سعادة وهول البحر من قائمة المغضوب عليهم.

يروى أن المظاهرة حين تفجرت مرة أخرى كانت أكثر حدة من سابقاتها.

ـ ٦ ـ

تقف الآن مثل جندي مهزوم لا تتجرأ على الدق.

ـ دقَّ فقط وسترى.

تذبحك الغربة. البحر على شبر منك. تستطيع أن تشرع في ولوج حلمك من أبوابه الواسعة. تلقي بنفسك فيه وتستحم وتلمّ ندوب نزيفك بملحةِ. تستطيع أن تفعل أي شيء بدون خوف. اقتنع بهذا جيدا.

أوف. لا تخف. فلن تختلسك العيون. الكلاب مشرّعة للعودة إلى مدنها البعيدة. لكن أشياء كثيرة راسية في زحام الذاكرة.

كل شيء يبدو غريبا في عينيه. الدار القابعة عند البحر الذي تقيّأها، تآكل سقفها وحيطانها. استنزفت أملاح البحر حيطانها الخشبية، فبدأت تذوب شيئا فشيئا.

ـ من هذه الأكواخ خرج ابنك مسلولا من الرّطوبة، يعانق خضرة الغاب. يحمل في زاده نفس البرقيات والوصايا التي تنام في دماغك الآن.

تحسس الباب بهدوء. كانت ثقيلة كحزنه الذي حفره.

ـ ألف مرة ومرة حدثتك نفسك بالفرار فتكسر أنفك على البّوابة الحديدية الخشنة. كم نامت على صدغيك الصّفعات وشق السوط ظهرك. وهددك الحراس بالقتل والتنكيل لأنك مستباح ودمك مهدور.

ـ ٧ ـ

حين أنزلوك القبو، وضعوك بين أربعة جدران ضيقة تنزّ بالرطوبة، وأجبروك على تنظيف المجاري المعطّلة والمراحيض ولم أعقاب السجاير وعلى ظهرك تتثاءب وجبات السوط.

ـ كلاب وأبناء كلاب لا أكثر. من أين جاؤوا وكيف سرقوا البلاد وحولوها إلى ساحة سرية للموت اليومي؟ من أين جاؤوا وأين كانوا قبل هذا اليوم؟

كل الأماني مرفوضة.

صادف أن سهوت ذات مرة وحلمت حلما آخر بحجم القمر المدفون. فهوت على رأسك بندقية الحارس اللّيلي وجرك كالجيفة ثم أغلق عليك الباب في قبوك. ونمت مرغماً تحت وقع الضّربة الشرسة.

الحلم ممنوع... ممنوع الحلم.

تلك هي الكلمة الوحيدة التي سمعتها. قبل أن تسقط.

كسوتك يبست على جلدك. ست سنوات من روتين الاستنزاف ليست شيئا بسيطا. حلمت فيها حتى تعبت. وندمت بضعف على أشياء كثيرة.

وشوارع مدينتك المهجورة التي لازمت أوقاتك ومدّدت عليها لياليك الباردة تذكر جيدا ملامح وجهك البحرية.

تكوم في جسده كالحلزون المفطوم.

ـ أنت الآن تذوب في دمك. تعوي في بطنك براميل الماء والصّابون التي شرَّبوها لك بالقوة لكي تعلن عن القائمة التي في رأسك. يستكين بين جروحك المفتوحة حلمك الساقط في سلة المهملات. وحين كان الدم ينزف من كل أطرافك. أدركت أنك ستموت في هذا العفن قبل مطلع الفجر.

ـ وإذا متَّ، ماذا سيكون؟ هل ستغير الأرض دورتها؟ الكلب خير منك. والقانون لن يصاب بهزيمة بعدك لأنه وجد لحماية من هم أكبر منك.

ـ ٨ ـ

تحسّس الحائط من جديد. الدّار أصبحت شيخا هرما تطارده الأيام. حرثته التجارب اليومية.

ـ أوف. تشجع. دقّ الباب. دقّ. فلن تهزم ولن تخسر شيئا. وجهك الثاني خلف هذه الألواح التي أكلها سوس البحر الأعمى،

ستكون روعة التتويج بحجم هذه الآلام وهذه الذاكرة. دقّ. دقّ، فلن تخسر شيئا.

طك. طك. طك.

لا تعرف كيف هوت يدك بتثاقل شديد على الباب.

فجأة بدا لك كأنك تسمع نشيدا بحريا يأتي من قريب! تزحلقت عيناك إلى الضوء الذي يسكن البحر. بدا لك كأن أنغاما شعبية تتعالى، كان يردّدها أناس زرق سكنوا البحر والقوارب.

هيلا هوب. هيلا هوب

بحر. وحياة. وحب

هذي نجوم وقمرا

راني جِيتْكُم في عيني بشارة

يا البحّارة. يا البحّارة. يا البحّارة

ساد بعدها سكون كبير. شعر بحزن عميق يشوّه كل ما تبقى من ملامحه، فالزمان الأول مات ولفظ وراءه زمنا موبوءا.

ـ إيه. الحاج المنتفخ ربّما كان يلهث في هذا الظلام ليضمّ إلى أسطوله قوارب الصيّادين الأخيرة ويبيع جهدهم في السّوق فقد تنبأ العرّاف حين قال قبل سنين:

ـ عندما يذهب جاك، سيبقى الحاج.

لن يتوقّف الرّحيل

(استدرت قليلا. تراءى لك الحلم يتّسع أكثر ويتّخذ شكل خارطة جديدة بشكل البحرِ.

كانت الشوارع الراحلة بصياحها موصدة بالجثث المشروحة في

زحمة الليل. أيدي الصيادين تتشابك في شكل قل ما يقال عنه أنه رائع. تستعيد القوارب ولون البحر والأغنية الجميلة.

حكمة قديمة كان يردّدها الجدّ الذي ابتلعه البحر ذات ليلة:

ـ النهر حلم الفقراء. البحر حلم الغرباء. والليل ذاكرة العشاق.

ـ أنت تحفظ هذا جيدا وتردّده موحدا لأنك تجمع بين الهجر والفقر. وأكثر خلق الله عشقا للحياة.

ـ ٩ ـ

طك. طك. طك.

أعدتّ الدق بسرعة أكثر. فتح الباب بهدوء تام.

ـ سيّدي

ـ ؟؟؟؟؟؟؟؟؟

ـ سيّدي. هل تريد شيئا. نحن مثلك لا نملك شيئا نعطيه لك، إلا بعض الدفء إذا كنتَ بردانا وخائفا من الرعود والأمطار؟

تحدثت امرأة متعبة، عند عتبة الباب. أيامها منهكة. سوستها السّنون. بين تجاعيدها القمحية سكنت أزمنة تقاوم الموت. تكفل شعاع الشمعة الميتة وفحمة الليل يرسم ملامحها.

ـ سيّدي

هي. لم تتغير إلا قليلا.

سقط على واجهة عينيها كوكبا متوهّجا. أشرقت على إثرها كل الأحلام والمدن الزرقاء.

حاولتَ مسح ذاكرتك عبثا.

ثم فجأة فتحت عينيها. رأتك خلف اللحية الكثة التي سرقت نور وجهك وخارج تجاعيدك الكثيرة. ضمتك بعنف وتكورت تقيم في صدرك وشما أخضر.. وانهارت على جسدك بحراً وأشرعة في مهب الريح.

حين التقيا للمرة الثانية وكان كلاهما يجر قطاراً من السنين المتعبة. زالت كل الفواصل والحدود. وعاد كلاهما يرتب وجه الآخر ويشكل في عينيه بحرا وخارطة الوطن الهارب.

ـ لن يتوقف الرحيل.

ـ ذاك الزمن الأول. وهذا الزمن الثاني، وسينبت الزمن الحلم.

واتسعت أجفانهم البحرية تحاول نسيان سنين الفقدان والخديعة.

ـ هل هي مجرد كابوس يشبه الخديعة أم أكثر؟

ربما كانت شيئا آخر. لقد سرقوا منك كل شيء. الوطن. عمرك. زوجتك. أبناؤك الذين ماتوا في غيابك. سرقوا منك إمكانية أن تحب.

عليك الآن أن تتعلم كل شيء من جديد. أن تعلم قاتلك كيف يصبح إنسانا. ستقول له أن الحرب انتهت وعليك أن تتفرغ لبناء أرض أصبحت رمادا، ورملها الورثاء.

الورثاء؟ احذر أن تقول هذه الكلمة. سيتهمونك بالشيوعية، الكفر، الإلحاد، القومجية، بالإيمان المدسوس، الخونجية... لا يهم. لا تقل شيئا وعلم قاتلك فقط أن يراك إنسانا مثله.

سمعتها تتمتم:

ـ ها قد عدتَ وهذا كل ما يهمني. سنرمم أنفسنا مع الأيام.

أغمضت عينيك وتهاويت في دوامة بكاء مر لم تعرف مصدره.

سيدي بوجنان: ١٩٧٧

الوشم[1] بالإسفلت

(١) جائزة مهرجان القصة ـ الجزائر ١٩٧٧ .

ـ ١ ـ

حين رآه لأول مرة، حاول ملأ عينيه، بالدم السائح ولم يصدق. ولكنه بكى كالطفل.

ـ ٢ ـ

كانت المدينة صفراء كقشرة ليمون تنداح إلى الوراء، مهشّمة البصيرة، تنصهر في تأنّ تحت غلالة الدخان الكثيف، عندما دخل النبأ مرتعشا، قامته الفارعة جرحا عملاقا، يتمدد في كل اتجاه الشوارع المثقلة، المتهالكة في نهم المكبوتين على صدر المدينة البغي. يتكثّف في نقطة ما ليصبح ريحا قوية على الوجوه المتشحة باللعنة المزمنة. يتصاعد عاليا ليلفظ جدارا من الأفواه الجائعة. تساءل شيخ يبحث عن فرنكات جائعة كوجهه، أكثر خلق الله عشقا للحياة. تمنى يوما أن يعانق نجمة هربت من بين يديه. وكان الزمن زمن البرد.

ـ إلى متى تستباح السواعد وتصدّر الوجوه؟؟ مدينتنا!! نحبها وتقتلنا.

وقال آخر يملك سبعة أرواح كالقط، استفزته المدينة مرتين ولم تفلح في قتله.

ـ آه. كم قلت له. دعك منهم فأنت في مصانعهم.

لكن تعنته المطارد في كل الأزقة كان دائماً يتلو شهادته المعتادة.

ـ رفيقي. كلّنا في البزّة سواء والزيت في أيدينا شهادة.

واليوم. حين عاد يحمل وجهه المرقع بالجوع، بين كفيه المصلوبتين، . يسكن في عروقه صمت الثلوج، أدركت أنه كان بحجم التاريخ، في عينيه تصطك الأيام بصقيعها وعنفوانها. سيعود داخل تابوت بارد.

كلنا جثث مغتالة حتى النخاع.

ـ الابتعاد. لا تعيقوا التحقيق.

التحقيق. هذه الكلمة الساقطة. أبناء الكلاب كل شيء حولوه إلى مزابل.

مدينتكم مسلولة أيها السادة.

من عينيه النائمتين في قلب التراب. جهشت شوارع الاغتيال، لسنا شحاذين. أوطاننا التي تعانق غربتنا ليست عاهرات تقبلها كل الأفواه، حين كان الحزن يتصدر بوابة المقاهي المهترئة التي تبتلعهم كالبضاعة الرخيصة وتتقيأهم صبحا ومساء.

كان ساعد ما مطارد في كلّ الأمكنة، رأسه معلّق على قدميه، تستلقي على عاتقه فاجعة الموت والحلم الذي شاخ ولم يزهر..

كانت حقائب ما، في زاوية من هذه الخارطة الممزّقة أفقيا وعموديا تشد بالنّفس المتبقي من حادثة الاغتيال. تبحر في قلب الوطن الهارب، تحمل بين أحشائها أنين الساعات وحرقة الأجسام المشوية. إنها اللحظة التي تضيع فيها كل الأبعاد. لحظة الموت حين نتذكر طفولتنا وأعراس البلدة.

كانت وراء الجدار الموغل في الأبعاد الهندسية، امرأة تشم رائحة الحلم المتلف عبر امتدادات الغربة. تطارد الخبر المشئوم، تفتح عينيها، ترتب المسألة من جديد ثم تدقق والليل ثقيل كجثة فيل متفسخة.

هذه الرّيح العمياء لا تحمل إلا أخبار الموت.

يعني مات. لا. لا. فالشمس لا تعتقل والبحر لا يشيخ.

إني ارفض ما أسمعه الآن. لا شيء يستحق أن يسرقني.

ـ ٣ ـ

الحقيقة تقال: وراء الشواطئ الصفراء كل شيء يغتال في حضرة المواسِم الباردة. الليل هاهنا تنّين مفقأ العيون، يبحث عن قطرة دم يستنزفها. المدينة بلون الشوارع، أفعى تلحس في الخفاء والعلن ريق أطفال الحارات الجائعة. القمر زنجي يتدحرج في عيونه المطموسة أحلام مكوية. هو. كان يغني ويسترجع أسطورة الغول في الزمن المحروق. رغم الشمس يابسة كضلوعه. كان يحلم في همجية الصبية. بوسّع خطاه أكثر. القنطرة تحت أقدامه باغية تفتح رجليها أكثر فأكثر. وقف قليلا. تأمل. أحس بشيء يسح فوق وجهه باردا كعرق الموت.

تسلقت عيناه سماء صفراء عقيمة. فكانت اللحظات تفوح كجلد قديم والغضب في ليل عينيه، زنجي صامت يجهش في الخفاء، تعصب فاه عنكبوت الجوع وتلفظه الشوارع كعادتها، والبارات ومواخير الأحياء الشعبية.

إيه يا جاك. لو كان العالم مثلك لن تسوسنا طعنة الخبز.

تنتفض الأيام في ذاكرته المكسرّة. تعود اللحظات واحدة. واحدة. هناك كانت طفلة تتمزق في كلّ اتجاه. ترقد بين الأشواك. تبلع عروق نوار الدفلى المرة. تآكل نصل الجوع على هامتها المتهرئة. تتمنى فقط لو تراه مرة ثم تموت. سألها ذات ليلة.

ـ لا يا طفلتي. لن يتمزق جلدي. سأحد من مسافات الجرح الساكن في ضلعي.

ـ إيه. هناك عالم آخر. متى دخلته. خرجت أنا من جلدك.

ـ لا يا طفلتي. نحيبك قد استكان بجسدي.

غدا سأعود بحقائب مثقوبة كجرحي، وكسوة جرباء بحجم الفراغ.

يا للتفاهة. في الرأس بطّيخة. والجوع يأكل الأولاد. الفنطازية. كه. كه.

ـ وراء الشواطئ تختبئ الأحلام. كان أولى أن أقول تستلقي فاجعة الموت.

ماذا أعطتنا باريس التي وعدتنا بسيارة وبليلة دافئة في حضن شقراء، وباللقمة؟

كان الليل ينز بالرطوبة. تأملهم من جديد. هذه هي الذئاب التي تحتل مداخل المدينة.

ـ . . . . . .

ـ هالت. هالت. قفْ. قلت لك قفْ وإلا سأطلق النار.

ـ ؟؟؟؟؟؟. ؟؟؟

ـ ألا تعرف أن الليل أعمى. أوراقك.

ـ معي. معي بطاقة تعريف وتذكرة سفر فقط.

ـ هات.

قلت في خاطري:

م م م. يا إلهي. أشتك في هؤلاء. يعني سأصل إلى بلادي أصداء خبر.

وتمتد الذاكرة التي جرحها الخوف، تبحث عن الذات التي أكلتها ليالي باريس الجائعة.

كانت القرية.ز هذه الطفلة الدائمة الجوع، ملقاة في عبث تحت أعجاز الزيتون، مرمية في استهزاء على خارطة مزقتها الغربة، على قفاها الموشوم بالندوب والأشكال السريالية، كان الشاطئ موحلاً والبحر يتماوج بعياء. كانت تجهش. الحزن العميق يأكلها من الداخل كالسّوسة.ز تخرج الأقبية. تتقطع من أوردة القرية، تتمزق أجسادها على أحصنة الخبر المشئوم. ماذا حدث يا الله. رآها تصرخ كما لو كانت أمامه بعيونها الواسعة التي ملأتها الدموع. آه. هي نفس العيون التي دفعتني إلى الغربة. إلى هذه اللحظة.

مات. مسكين. مات.

قال شيخ القرية منذ صباه، ينام بقلبه تاريخ الأجيال.. أورثته البلدة كل أمراضها.

ـ كالعادة. وجوه أولادنا تباع وتصدر وراء الشطآن. أي بلد هذا الذي يرمي بذويه خلف ستار الموت؟ أي استقلال يسرق اللقمة من فمك؟

آه يا غربة الهم حرقتنا. تشوينهم وترسلينهم مع الريح جثثا مصهورة في نار الخيبة.

- ٤ -

وأيقظه أحدهم بصفعة تكلمت على وجهه. أحس برنينها على صدغيه.

ـ ما هذا السهو. الكلام موجه إليك. أين كنت؟

ـ أ. أ. عند جاك. أحد الرفقاء.

ـ جاك. م م م. كلب شيوعي مثلك...

آه. هؤلاء القتلة قادرون على تحويل العالم إلى قيامة.

- ٥ -

قال ضرير يعاني من الغربة في وطنه. اغتيلت كل أحلامه أمام عينيه.

بدل أن تغذينا. تلعق طاقتنا، وتقذفنا جثثا وأخبار مع الريح.

المصنع هذا القدر العملاقي، هذا العالم المتشابك المتناسق الذي يلفظ الغرائب. عليه ههنا تشوى الرغبات وتشوه الوجوه مقابل فرنكات هزيلة يبتلعها الشارع والرغبات القلقة حتى قبل الوصول إلى الحي القصد يرى.

غلطة صغيرة وأنا ذبت عن أخرى؟

كانت يداه تضغطان على ملقط متهرئ، متآكل، لو ساء حظه وفَلَتَ من يده سيستحم ويشم رائحة أعضائه المشوية.

هناك الدراهم مرمية على هامة الشوارع. هه. خرافة مفقوءة العيون.

الحياة للساعد المسافر. شعار غرر بنفسه حتى ذبل

النساء معروضات بكثرة. ونسينا أننا مرفوضون كأمراض بلدتنا.

ـ هه. أي حياة هذه، منذ أن هربنا الأوطان وأولادنا يحملون في بطونهم سكين الجوع، وصفارة الموت كل دقيقة تطعن واحدا منا. إيه يا دين الرب، ما هذا الخوف المجنون؟ نشتاق الأوطان ونخاف الجوع.

جاك. كان نبوءة صادقة: القط لا يتوج الفأر إلا بأنيابه.

وجدتي. الشجرة العجوز الملفوفة بالتجارب. نطقت بالحقيقة ذات يوم:

ـ الغول غول. والشّبعان ما درى بجوعان.

ـ ٦ ـ

نطق المراقب الذي كانت عيناه تتراقصان كعيني جن أحمر.

ـ مسيو. ممنوع الحديث حتى مع النفس...

مرة أخرى نفس الشرطي... وجْه الفلس العقيم.

ـ عد من حيث أتيت وأرحنا من قتلك...

سأعود، لم يعد شيء يغريني في أرض الموت. سأعود... وجهي ليس بضاعة.

يوم من قبل، نصحه واحد منا، استفزته المدينة مرتين ولم تفلح في اغتياله.

ـ دعك منهم، فأنت في مصانعهم.

ـ أوف. أرأيت حين تعالى الصياح في المصنع. كثيرون من أرادوا أن يفقئوا عيونه، فبزتنا واحدة والزيت في أيدينا شهادة.

ـ فأنت تذهب بعيدا. تغلي معهم في الشوارع وتحمل الرفض على اللاّفتات.

تنساب عيناه، تبحثان عن مكان وزمنيين متفجرين. تذكر يوم الإضراب.

في الخارج كان الدخان غلالة تطمس عين المدينة المنهارة. الشوارع صفراء، ترحل، منزوعة من جذورها كشجرة خروب.

المدينة اليوم سلخت جلدها القديم. ترتعش كالقطة المرهوجة.

تمسّح ضفدع بمكتبه الأنيق حين كان ألف مخلوق ومخلوق، يحملون الفؤوس ويدمرون الشوارع القديمة. يحلمون بالشيء الذي لم يأت بعد.

ـ رائحة الزيت تستوعب مكتبي. خادم مزيدا من مزيل الروائح. دمكم مستباح يا غرباء النحس حتى أنتم يدكم طويلة؟

في زمن ما غير محدد على الإطلاق. كانت عيناه تعريان فتاة في الحانة، يسلخها كالقطة من فروها والناس يصفقون. في اللحظة نفسها كان رجل ينهار كالسور في بركة صفراء. والتصفيق كالعادة الموروثة يزداد حدة.

وحين تعانق من يجمع بينهم شيء اسمه الجوع رغم اختلاف الوطن، وبدأت شمس بحجم الإناء تطفو فوق الجثث المغتالة. تسمرت الشفاه وسكت الحاضرون وغضب الجمهور المتخم. لكن ديدانا وزهورا كانت تتوالد.

ـ ٨ ـ

هذه هي الخنافس الليلية المزيفة. كان ضوء المصباح اليدوي يكتسح قامته ويعبرها كمن يبحث عن كنز في الشواطئ الزنجية ليلا.

ـ هذه البزة المتسخة؟ ربما لم تذهب بعد لدارك؟

ـ فتشتموني. هذه الفرنكات خذوها واتركوني فلي أولاد في وطني. لا أكلب شيئا سوى أن أذهب الآن إلى بيتي.

ـ لا تتسرع كثيرا، لسنا سارقين. نحن لم نتحدث معك بعد. دعنا ندردش. قف. قف. Fils de pute... tu te sauves... Halte sinon je tire... **تهرب... لا تهرب. الوغد ابن الوغد.**

بام. بام. بام.

يجري. يسقط. يقوم ثم يتدحرج. يسقط من جديد. يفور الدم من رأسه. قلبه. يتمدد حتى يصبح غابة. تتفتّح في شرايينه عيون الأطفال. دماؤه تمزق الخريطة الموجودة وتمحو المدن الصدئة المتخمة..

كان الوطن الحلم يفتح جفنيه لمواسم النجوم والفرح والصحو.

هذه العيون المغتالة، ستحلم يوما ما بأحلى ولادة.

ـ ٩ ـ

ـ أوف. الابتعاد. اتركونا نحقق.

تفو. تفو. كلام الورق.

يتقلص النبأ كالبَلونة المثقوبة. يتسلّل عبر شوارع المدينة المتسخة المنهارة. يذوب الجدار البشري الكبير. ينداح إلى الوراء.

يتمزق في كل اتجاه، في قلبه فاجعة الفرنك الجائع.

ـ اتركونا نحقق من فضلكم. انتم تعيقون التحقيق...

باريس: ١٩٧٦

الخيانة
زمن العناكب

- ١ -

أشجار الغاب العملاقة ترتدي أكفان الليالي السود وتلعب لعبة الموت في ظلامها الدامس. رموش أحمد شارات تغبر المسافات الطوال. تجوب كلّ محطات هذا الزمن الضرير لتجثم في بهيم ليلها بقلب القبب البيضاء والزاويات.

وجه السماء عفن تجتاز صدره ثعابين الغيوم الملتوية والقمر على هامتها زنجي معتقل يرفع أنفه شامخا ويحتمي من الخيانة.

كانت عينا أحمد تمتد جسرا ملتهبا إلى قلب تلك القبة الجاثمة هناك والسلاح بين ساعديه نافذة يلمح من ورائها مواسم الخوف والعهود الصفراء، وهي تبحر وتنتحر زمرا.

ـ إيه يا قبب النحس. من يدري. ربما تجثم فيك. الآن عناكب بيض تمارس الخيانة والبسملة بين شفاهها جواز سفر أمام الساذجين.

أيام. آه من الأيام تمر والجوع بقلبها يفتح الجراح ويحصد المداشر والقرى. وأبناء الكلاب ينتفخون على حسابنا.

آخ. آخ. من أيام وليال سرمدية. ظلام. موت أسود. وعناكب تجرم.

هناك كان.

هناك كان الليل يلم رحاله. يجتاز الأميال ويعبر الأغوار السحيقة في تأني من يحمل على عاتقه عالما كبيرا. والقرية شيخ مقطع يرتدي الموت لباس حداد، وجراح الأقبية المنسية مرقعة في وحدتها بالأسلاك الشائكة. في كل لحظة ترتعد. تنفتح وتطول أكثر من أي زمن وتصيح:

ـ لمن تدق أجراس الموت هذه الليلة؟

فيصير الخوف أوسمة يتقلدها الذين خاطت عنكبوت الجوع أفواههم. بينما سيد الحكمة الذي يمارس الخيانة سرا يتململ في عاداته الرتيبة ويلوك ألفاظا لم يعد لها متسع ولا أذان تخطفها:

ـ الليلة صاعقة جديدة. تلك نصوص أملتها دفاتر السماء.

كانت لحظات الذكرى تتفرّع. تتشابك بعيني أحمد حتى تصير شجرة تمد أذرعتها نحو ماض موغل في الأبعاد والتنائي. لتقف في الأخير على رصيف عنكبوت شاخت لحيته، وطمست الفرنكات عيونه المرتجفة. فبانت لعبة الغميضة هوايته الوحيدة:

ـ أولياء الله الصالحين. الليلة ستهب زوبعة جديدة. حدثني بذلك الذين يسكنون وراء جدار نفسي في عالمي الثاني. ولد صالح سيشنق الليلة على أعمدة الظلمة.. أيها الفقهاء خدّام هذه القبة البيضاء وشرفاؤها. كما ترون كل الذين خطت أسماؤهم في كتاب الموت وناموا جثثا في حقائب الليل المتخمة. قد بحثوا عن الموت بالدراهم. والنملة أيها، الشرفاء، حين تطغى، تتجنح لتقبل مناقير الطير.

وقتها قال عجوز تمدد الخوف على خارطته المتآكلة وبات الموت من لحيته الشائبة ينعته في عجل المشتاقين.

ـ سيدي نخشى أن تأتينا بأخبار من الغاب في يوم ما. فهناك أيها، الولي الشريف، أولادنا وإخواننا. ألا تستطيع أن تغير اتجاه هذه المصائب. ثم أن ولد صالح وبكل صراحة لم نر منه ما يضر بنا.

ـ لا. أيها السادة. الموت لن يلغى. الصاعقة صاعقة.

وتساءل شاب يجثم بجسمه الفتي عجوز منخر الدماغ.

الولي إله بصولته. الله يحفظ. أصابعه نار إذا اتهم حرق.

حين كان الحديث شريطا على الألسن.ز كان الليل السرمدي يحتضن إلى صدره القبة السوداء وأعيان القرية العشرة.

يصلّون في حذر الخائفين ويركعون الركعة الألف لعنكبوت باتت تنفخها المواعد المذهّبة بالفرنكات.

وتترنح الكلمات المصلوبة على لسان أحمد وقد ضيعت مرساها حين تتجاذب اللحظات في نهم متطاولة إلى أحشاء الضباب المثقل بأسرار الليل، كان يعرف الحقيقة، فانسلخ يشق عباب طريق جديد بعيدا عن قافلة العناكب.

ـ آخ من زمان صارت فيه الخيانة حكمة. في كل عشية ضحية. نفس الكلمات تلوكها كل يوم شفاهه الجافة، وأسنانه الصفراء.

ـ ٣ ـ

الصاعقة صاعقة، حدثني الذين يسكنون وراء الجدار. مساكين هم

أهل قريتي. يلّف جميعهم خوف أصفر فيصيرون خرافا تدلّي أعناقها للنحر.

ـ غباء. كنت أبلها. فالموت في قريتي يختار أبطاله وفرسانه. يداه القذرتان لا تمتدان إلى عكو السكير أو قدور البشير الحركي. لا. الموت يريد من يتعامل مع الغابة سرا وجهرا.

ـ البارح. محمد الصور نام إلى الأبد وترك وراءه أولاداً يأكلون الشوك وحصى الطرقات. يمشون على وجوههم الصفراء. وزوجة، كانت المسكينة طائرا مذبوحا يترنح حين كانت أزقة القرية الضيقة تعوم في برك الدموع:

ـ جئنا نأكل فأكلتنا أيها الظلام. أكلت أزواجنا ونحن الذين نقشناها على صدرك الثقيل أملا أخضر وبتنا نبحث عن خبزة أكفانها الدموع والشقاوة. أولادي. صغاري يطحنون الحقد ويجترون الأسى. ضلوعهم البارزة نريك أنهم شبعوا جوعا وحرمانا.

ـ إيه. هذه ربما واحدة من الملايين.

والشيخ رمضان العجوز الذي بات يذبح الأيام ويستلقي على هامتها شابا في ربيعِ العشرين، يشق بطن التربة اليابسة.ز لقد غضبت عليه أزمنة الأرض الجافة. وجد ذات صباح مضرجا ورأسه يعوم في بركة من الدم.

في الصباح الأحاديث النسائية تدور في روتينيتها:

ـ مات. مات. كل ما يقوله السي عكاش حقيقة.

وقبلهم الكثير، لم يعودوا إلا حكايات يخاف بها الصبية. واليوم كأي زمن مضى. يقف شبح الناعي قابعا عند نافذة ولد صالح ليمتد

منها إليه. طبعا لا لأن السماء قالت قولها، لكن لأن ولد صالح طائر يهجر كل مساء إلى عشه الثاني بقلب الغاب يمارس الأعمال المرفوضة في وجه الخنافس والعناكب البيض.

ـ لايا السي عكاش. ولد صالح لن يموت هذا المساء. فضحت أوراقك وفسدت صفقتك.

ـ ٤ ـ

كان أحمد هادئا مع أفكاره الجديدة وعينا السي عكاش بوم يمتد من قبة الخراب ليعبره من أخمص قدمه حتى رأسه.

ـ إيه يا أحمد ولدي. أراك تخمّم كثيرا. فهمت. أخوك العيد. أنا كذلك أخشى عليه المصير. فكل من دخل الغاب، يا ولدي، إنسان مفقود تحمله العجائز أصداء خبر.

ـ م م م...

زمان كنت أعمى أثق بكل ما يقال. الآن فاقوا ولم يعد الجلباب الأبيض دلالة البراءة.. الكلب ابن الكلب يشرب مهجاك ومورو. يتعامل مع الجندرمة وهم يدلّلونه أمام الأعين بالكلمة المستهلكة: Marabout، الولي الصالح، وهو يعقد الصفقات بأعناق البشر الذين لا يملكون إلا جوعهم وآمالهم الصفراء.

في الليل حينما تنفجر قوقعة الظلام، يذهب الخنافس لعملية التنفيذ، ويأتينا السي المارابو، كالعادة ينبح في وجه سذاجتنا، يجر عباءاته البيضاء، في تأني المتخم:

ـ الرب قال قولته.

الصاعقة. الصاعقة.

ـ من اليوم، لن أبقى الرجل الساذج الذي يؤمن بالخزعبلات ويشارك في الأجرام بيديه وهو غائب عن أفعاله. السي عكاش. رأيتك بأم عيني تتشاور مع أسيادك على عنق ولد صالح. لن تستطيع مخادعتي. سأفضحك. سأفضحك.

ـ ٥ ـ

في الخارج كان الليل جاسوسا مريضا يعصب على جبينه بقوة. يجوب محطات هذا الزمن المتشرد، بارتعاشه المعتاد ليقف عند رجل هذا العنكبوت، ويتسرب قشعريرة إلى عظام أولياء الله فيسري الرّعب تيارا باردا إلى الأجسام الكهلة. يتخطى العيون ليسجل على الجباه بأقلام الخيانة اسم الضحية الجديدة. عكاش. يا الله..

ـ لا تفكر. فأخوك أراد ذلك. واللي دارها بيده يفكها بسنه.

عيناه بدأتا تسجلان اسم الطريدة المقبلة. لا ولد صالح. ولا أخي حسان. كلهم تفطنوا. لا تخشى أيها العنكبوت. يأتي الوقت الذي نُشرحك فيه أمام الجميع.

كنت. ربما سيمتد جهلي. لكن شاءت الأقدار أن أراك في المقهى مع جاك. تتّبعت حركاتك فعرفت من يكون ذلك العجوز الذي يدعي النبّوة الكاذبة. والآن عرفت مرامي قول أخي.

ـ هذا غول. سيبتلعكم واحدا واحدا.

أوحيت لصالح بالفرار لأن أقدام الجندرمة ستزوره في هذه الليلة ليصبح حديث الألسن في الهزيع الأول. قسم في كهوف الجوع أنه

سيبصق في وجوههم جميعا ولو امتد جرحه أكثر. وأن الذئاب لن تلعق من دمه بكل بساطة.

ـ ٦ ـ

ـ أيها الوالي الصالح. أريد أن أسألك سؤالا صغيرا.

ـ تفضل. تفضل يا ولدي.

ـ متى نستقل ويخرج الاستعمار من أرضنا؟

ـ أ. أ. أحمد. إنك تبحث عن الموت. واش هذا الكلام. لست أدري؟

ـ ابحث عن الموت. لا تضحكني وأحزاني وجروحي كبيرة وتؤلمني.

ـ ؟؟؟. ؟؟؟. ؟؟؟

كانت عيون المشايخ ترتعد وتصهل في أبعادها اللامتناهية ترتعش غيظا ونقما وكأن الأفق أعوج والدنيا زلزلت.

ـ تفو. تفو. لا حياء ولا حشمة.

ـ ما خاف لا من الله ولا من العبد.

قال عنكبوت يجتر الحقد لبان خيبة أمل، وخوفا من هبوب الصاعقة.

ـ ما الذي أصابك أيها الوالي. ألا تستحِ على عرضك.

ـ يا أيها السادة الأبرياء. هل قلت ما يستحق هذا الكلام. فقط أردت أن أعرف ساعة الحياة ما دام صاحب المقام يدرك ساعة الموت.

يصمتون، كأن الطير على رؤوسهم.

أيها الزمن الذي صار يحمل على كاهله المنهار أوسمة العار المريضة. كل العيون في هذه اللحظة الرهيبة معصوبة بفارغ الكلام، مغروسة في وحل الجهل. الأوصال باعت نفسها وصارت تشتري بالفرنكات وتحرك بالأزرار.

هه. هه. هذا يصلب شفتي. يخشى على العاقبة. الآخر يتمتم في قلبه مخافة أن تلعن السماء هذا المجلس الموقر. هه. هه.

كنت غبيا حين كان الموت يوزع مجانا على الأبطال.

كل من ولج الغابة ولمحته الأعين البشعة المزيفة. في المساء صفقة مالية على عنقه.

وفي المساء. كعادة الشيوخ. يأتي العجوز المنتفخ الذي يتقلد وسام السيادة فرصة لامتصاص الدماء الساذجة. ويرثي من لفّه برد الليل الأسود. صباحا في عادات القرية الرتيبة. تأتي العجوز التي صيّرها الزمان ضريرة تتقيأ الأخبار.

ـ الجراح تتمادى في طولها. أعواد المشانق تنصب في كل الزوايا. الخناجر تسنّ في كل اللحظات. والضحية واحدة. أعناق الذين لا يكسبون في أقبيتهم إلا جوعهم وفقرهم.

ـ ٧ ـ

ـ سيدي عكاش. ألا تخجل من سنك يا سيدي الفقيه؟

ـ أنا. أنا. ؟؟؟. عيب يا ولد الناس.

ـ لا تدار. لا تحاول. لقد عرفت الحقيقة أيها الدرويش الخائن. لكن تيقن أن لعبتك فسدت. ولد صالح لن يموت. لن يموت. وأنتم سادتي الدراويش. مزيدا من اللعنات. لا يهم. أنا لست منجما أجتهد في الكذب لأتقلد وسام السي عكاش. لا حاشا. فقط أعيد عليه وعلى من لا زال يعوم في فلكه، سؤالي الذي أحرجه: متى يلم الليل أثقاله الرمادية لنغسل أجسادنا في وضح النهار؟ كلكم عاجزون لأنكم لستم أنبياء. يا وكلاء الله، فقد عرفت الحقيقة. هذا عجوز ذئب خائن. هذا شريك الاستعمار. بأمره تكسر الرقاب وتعقد الصفقات بدمائكم ودماء أولادكم. بغيّه أيها السادة، تمارس نساؤكم الخيانة مع أولاد لاليجو[١]، ذوي العيون الزرق وهو الذي يشوه نسلكم ويبيع ذريتكم للتلاشي.

وتمتد العيون أسلاكا شائكة تعبر جسم أحمد لتغور في خدوشه.

ـ لا. أنت مشوش. أنت كافر.

يقف عجوز كطوطام الهنود. يبصق بوقاحة الدراويش:

ـ تفو عليك يا وحد الخائن.

وتسرح الأصابع على خارطة هذه القبة الصغيرة. تتطاول.. تنعت. تصيح.

ـ أنت منبوذ. أنت منبوذ. نبوءتك كاذبة. كلامك فارغ.

يرتفع الصياح. تتسارع الأصابع للنعت. تمتد أكثر، تعبر هذا العالم المستكين في ليليه السرمدية. الصياح يعلو. يسطو الروابي الناعسة والأقبية.

---

(١) La Legion (La légion d'honneur).

ـ أنت منبوذ. كاذب. كافر. خائن. يمتلئ رأسه. يكاد ينفجر.

أفكار النحس عشّشت في أدمغتهم.

ـ أيها الأولياء. هذا خائن. هو السبب في موت محمد. العم رمضان.

ـ أنت منبوذ نبوءتك كاذبة.

أنت منبوذ. كلامك فارغ.

ـ أولياء الله المزيفون. لا تصيحوا. لست نبيا. لا تنبحوا أيها القادمون من التفاهة والرياء. أنتم شرفاء في صدر أثوابكم تفوح النتانة.

ـ أنت منبوذ. أنت منبوذ.

ـ لا داعي للصياح. فخنافس الليل ستسمعكم. ستنزع شفاهي ولساني الطويل. لكن تيقنوا أيها الأنبياء الكاذبين أنكم لن تمنعوني من احتضان الغابة وتقبيل القمر الذي يلتف في غلالة الغيوم. لن أمارس لعبة الخيانة.

من اليوم سيغسل عقلي المتسخ وأقبل في سمري رذاذ الغاب، وأوراق الخلجان. معكم، توقف زمني هاهنا أيها العناكب. لقد امتدت بيننا بحار الدم والقيح وشبابيك تعج بالمساجين. وقرية مها الرجال أهلة رمضان تظهر مرة في السنةفلن نلتقي إلا إذا زالت الأقنعة. فوشم الخيانة قد أفسد ما بيننا.

ـ ٨ ـ

في عشية تذكرها الأيام جيدا. في الأقبية التي تمارس. الخيانة

والبُطولة معا. داخل المسجد كان ولد صالح يتربع بجلبابه الأسود وبغينيه يهجع حقد مزمن..

مشت عينا السي عكاش تعبر الزوايا بعد سلام الصلاة.

ـ إيه. هذا المنحوس لم يمت. لا حول ولا قوة إلا بالله؟

تساءل في خفاء وحيرة.

كانت المفاجأة ترتسم هلعا على الوجوه الشائبة التي صارت شجرة عجوزاً ضمتها الليالي. ويخرج القيح من القلوب السجينة:

ـ ولد صالح لم يمت. عكاش نبوءة كاذبة.

تعوج الأنظار من جديد إلى الوراء.

ـ أين ذهب. أين ذهب ولد صالح.

وتتوجه الأعين إلى الصدر خناجر مدفونة في القلوب الساذجة نحو الأقبية. عشيتها كان عكاش عنكبوتا أبيض يمتطي صهوة جواده، يرتدي اللّباس الموشم ويمارس الخيانة هذه المرة جهرا. لقد أصبح خائنا معلنا.

ـ عكاش. نبوءة كاذبة.

عكاش.. صار ذئبا يتعامل مع الخنافس. والجندرمة.

ـ ٩ ـ

في صباح يوم ما كانت ضجة تدور وتعبر أطراف القرية المستلقية على صياح أيتامها.

قالت عجوز سوستها الأخبار لإحدى نساء الحارة.

ـ عكاش مات. القرية خلات. اليوم ستمسح من خارطتها.

ـ واش يهم. رجال مشاوا. المقابر امتلأت. السجون امتلأت بالمساجين. الغابات كل يوم تقذف خبرا مفزعا.

ـ ١٠ ـ

بعيدا. على هامة جبل وشمت خدوشه خناجر الجفاف، كان الشيخ العم صالح يسترجع ذكريات ابنه الوحيد ويخط على صدره رغم الأحزان، خطا أخضر يشبه خط الحياة.

ـ إيه يا ولدي. ليت الصحة لم تخدعني. الطريق أصبح واضحا. فما أحلى اجتيازه بألغامه. لكن تيقن يا ولدي أني لن أموت بكل سُهولة.

على مسافة غير طويلة كانت المدينة متخمة، لا تزال تصفق للفارس المغوار وتبغي حين تغفل عيون عشاق ناصيتها المغرية وقتها كانت القرية تمتد بأصابعها النارية نحو العناكب البيض وخنافس النحس وتشتري الجراح والموت مجانا من قلب الغابة:

ـ أنتم كلاب. تمارسون الخيانة.

القرية تتقياكم جميعا وحين تضيق أوجه الأزقة، ترتدي القرية التي نفضت من على ظهرها أسطورة الكذب والليل. وأشياء أخرى.

وعندما يعتصر وجهها المرقع بالجوع، تقطع الخيوط والأعشاش المنسوجة وتُنْفَى العناكب نحو حفر الموت.

في أدغال غارقة في عمق الجبال، كانت تغتسل من دم جرحها

وترسم على صدر الغابة خارطة الحب النابض وفي أحشائها أناس الأقبية بطاقات أحلام تسافر في كل ليلة تحمل خبزا وحليبا.

زمن جديد كان يولد.

ـ ١١ ـ

ـ من؟

ـ ولد صالح. انتهى دور حراستك. تستطيع أن تترك مكانك.

ـ مد عينيك هناك. العناكب تمتطي الرياح هلعا. القرية تلفظهم واحدا واحدا. أني أراهم رغم ظلمة الليل.

ـ الحمد لله. سينتهون يوما وستقل سرقة أوجه نسائنا وأولادنا.

ـ تظن. لا. الجرثومة باقية. لكن المهم انتهت سنوات الاغتراب وبدأت العناكب تثبت فشلها وهذا مكسب لأنهم يخدّرون العقول ويعرقلون سرعة العجلة. في الغابة ستمارس الحب. العشق بكل حرية لأن قرية الأحلام بدأت تنهض من غفوتها.

حين فطن الساهون. والأموات أحياء. كان الليل والقرية والمدينة والغابة، في كل ركن من هذا الامتداد، يعيشون القهم المرفوض لدى العناكب: الحب. الحرية. الحلم. والفتك بالعناكب التي رسمت على جبينها وشم الخيانة.

ـ ١٢ ـ

زمن جديد كان يقف على عتبة القرية.

هو ذا يتفرع بكل خجل تحت أشعة شمس خجولة كانت تأتي من الجبل المقابل.

سيدي بوجنان: ١٩٧٥

الصيد البحري
تذكرة موت مرفوضة

احذر . . فإن لليل عيوناً .

.. انتظر. والانتظار كان طويلا.

ـ يبدو أن السيد ابتلعته سمكة؟

١ ـ الدار

الدار يتيمة يبتلعها الظلام في تأني المتخم المتكاسل. البحر بجوارها مخلوق غريب حرق القرون ولم يشخ. كان حقودا يسن خناجره فتهتز أصداء الأمواج ذبيحة مترنحة. كل لحظة يتقيأ مئات الحصى ويبتلع ألوف الرمال. الليل. البحر. الكل يأكل حتى التخمة إلا أناس هذه المدينة المقيحة يلتهمون القيء ويشربون النزيف.

ـ آه يا الرب. ما يزال دائماً.

كان الزمان شيخا عجوزا يدب. تثقل عاتقه متاعب المسير. عقرب الساعة الحائطية يمر ثقيلا.

طن. طن. طن.

ـ أوف دقت دقتها الثامنة.

ـ متى يأتي هذا المنحوس.

كل شيء صار ثقيلا. يداه رصاص. يحاول ترويضهما. يحركهما في كل حدب وصوب. من رأسه. إلى جيوبه. إلى. لا يدري أين؟؟

فتح النافذة. الدنيا تبحر في جوف الظلام. تنسل في صمت

الموت على متن قوارب الفرار. تضم إليها حقائب ملؤها الحزن والألم. تندس في أغوار ليل امتزج أسوده بأحمره وبأخضره، ليلفظ في الأخير لونًا قزحيا غريبا.

- ياربي. واحد قلبه خنجر يقطع الأحشاء وآخر تمتد الطمأنينة بين ضلوعه صبيا صغيرا.

إيه. المهم سنرمي الشبكة الليلة وربّي كبير ولو اقتضى الأمر أن..

دأب من جديد إلى النافذة. نظرته جسر يمتد إلى البحر المتكالب. إلى قلب المدينة الثقيلة كليل حزين.

كان الليل إنسانا ضريرا يبحث عن شيء أكله الخوف. تحرك حركات رتيبة ثم شرع لوح النافذة. رائحة البحر تتسرب إلى الخياشيم والليل زنجي يجلد القلوب الشقية. في شره التنين يحاول التهام الشجيرات المتربعة جنب الدار.

- لا. لا. لن يُفتك بأبنائي وأبو الرزق، البحر، على خطى مني.

امتد بنظراته بعيدا. يفضّ الآفاق المتباعدة. يسرح في قلب الليل المتصلب الشرايين. كانت أضواء الشارع المتطاول نحو البحر تغري عشاق الخبزة. ارتعش فجأة. التوى عنقه في حركة عشوائية إلى شجيرات الأرز التي تطوق الدار. ها هي ذي أصبحت شبحا أسود، ظلا ضخما.

حول نظره إلى الطريق، فكان ثعبانا يتسلل نحو البحر في صمت.

- رائحة الذئاب. رائحة البحر. كيف نسوي بينهما.

صاح صبي يستكين بصدره.

- لا. ليس هناك ما تسويه. الذئاب ذئاب. والبحر بحر.

ـ لكن.

ـ . **بدون لكن. إنها تريد أن تلعق المياه وتستنزف رائحة البحر.**

الوقت يمر هباء، وهذا المنحوس لم يأت بعد.

وراء الزجاج المتسخ. في قلب الطريق، الثعبان الإسفلتي، كانت الذئاب تجثم. تتربّص بالمارة. ذئاب بشرية مهولة. تستل البراءة من القلوب التي لا تكسب إلا بساطتها وجوعها. تمزق الثياب من على الظهور. تنقب الأحشاء في عاداتها الرتيبة، فلا تحصل إلا على فرنكات قديمة، بدأت تفقد قيمتها تحت تخمة العرش الغليظ، أو قارورات من شمّة بنت شيكو الماكلة. أو ربما أعقاب سجائر وأدت أنفاسها لتخرج عند الضّرورة الملحة. مع هذا الفقر وهذا البرد، كل شيء جائز.

طك. طك. طك.

دقتان على الباب. ثم ثالثة فسكون.

ـ هو. هو. من؟

ـ الطير البحري.

فتح الباب. ابتلعت الحجرة شعبان في سرعة البرق كأن شيئا لم يحدث. كان البرد في عظامه صقيعاً، روماتيزم، مجسدا يتشكل على وجهه الذي صار شجرة عجوزا لفت براعمها العارية ريح الخريف الصفراء.

كانا اثنين يحتسيان قهوة عربية تسري مسار الشيطان في العروق.

كانا اثنين يحترسان أعين الهم والعذاب بينما الليل سكين حاد يمزق أعماقا ظلت تصهل ذبيحة.

حكاية هذا المساء عن الذئاب

شعبان يفتح الزجاج. كان الشارع الممتد في قلب العتمة يبدو هاجعا. نائما لا يحرك شيئا.

هنا استرجعت اللحظات الشهيدة دقائقها في دماغه المتعب.

حكاية ذاك المساء كانت هزيمة بعينين خضراوين.

حكاية ذاك المساء. تجربة دخلت حقيبة الليل الواسعة.

ـ فيما تفكر؟ هزيمتنا في المظاهرة.

ـ ضرورة. كان لا بد أن نهزم في مثل تلك الظروف. المهمّ لم نتوقف.

ـ الذئاب. حتى جان كلود قتلوه.

ـ طبعا لأنه صياد مثلنا. يحمل في معدته سكين الجوع.

انزوى البشير يحتسي قهوته. بينما اللحظات الدامية شريط يمزق شعبان.

ـ عندما تذوي الزوابع الصفراء بالرجال البسطاء، يتساقطون كحبات المطر على وجه التربة العقيمة المالحة، وتبدأ الأسطورة المزيفة في الحبك والحياكة بخيوط دم الأبرياء الذين يقتلون وبلادهم امرأة حبلى تلد كل يوم ألف عجينة وعجينة.

كل شيء متوفّر. وشعب هذه المدينة البحرية يلهث وراء الخبزة المكفنة بألياف الموت. من أعماق الرماد المحروق ينتشلون أشعة كادت تخبو تحت الرفس والوطء. لا عَمَل هنا سِوى الصيادة[١]

---

(١) الصيد البحري

والصيادة تأشيرة موت مرفوضة في وجوههم المتجعدة. تظل المقاهي تقذفهم في حركات رتيبة إلى الشوارع الموبوءة. والشوارع مزابل تلفظهم في سرعة البرق إلى الأقبية الوسخة لأن التسكع ممنوع. ورقة مرور لا تحملها إلا شرطة الليل.

ـ ألم تمل التفكير بعد.

ـ أملّ التفكير؟ عندما تسقط الكلمات شهيدة في الأزقة المسلولة تتكالب الأيادي القذرة في محاولة لتشويه كل شيء جميل. يفعلونها، أولاد الكلاب.

ـ فهمتك. الخونة. صالح الكلب. أظنّه لم يرك في هذه الظلمة.

ـ ربما. فقد شققت طريقي إلى هنا بين الوديان. لكن كما للجدار آذان فان لليل عيونا. المهم سيدفعون ثمن لخضر) وجان كلود، وغيرهم.

تتقهقر اللحظات. وتعود الهوينى. تتراكم على جدار الذاكرة. تخرج من قلب الزمن الموبوء للتّراخي على قلبه الممزق كقطعة قماش عتيقة مملوءة بالثقوب، مثل الصقيع البارد.

٢ ـ الشارع

هناك في قلب المدينة، كان الشارع الرئيسي والوحيد يرحل نحو المجاهل السّحيقة. عندما ملأت فجأة جوف المدينة الذابلة غوغاء. أصداء مترنحة. صار وقتها الكل مشبوها يحمل على عاتقه آثار الجريمة. وانكمش الشارع يصم آذانه. كان في حالة مخاض غريب، يريد أن يلد تنّينا مزركشا في تلك الليلة بالذات. والناس بجوفه

كأسطورة الغول الذي أكل عرشا يعوون ببطنه عندما ينام. يصيحون. الأحاديث لها مذاق القطران تتذابح على الألسن.

قال عجوز نحر سنّه السبعين، شارباه مجدافان أبيضان. يتصدر ضجيج الإضراب.

ـ نبحث عن حق مسروق. لن نخسر شيئا.

زاد بلهجة فرنسية متهدجة.

ـ تخيفوننا بالقتل. هه. ماذا يفيدنا والموت بغطي الأرض.

قال صياد في مقهى أكل ملح البحر أخشابه. البيرة الرديئة لعبت برأسه.

ـ كل يوم يقتلون صياداً، وكل يوم يولد عشرة.

ثم التحق بالشارع يمتطي قاطرة الغفير. يردد في كلماته التي حفظها عن ظهر القلب. يحتضن إلى صدره القنينة. كان الصباح مخيفا، اهتزت له البنايات المتطاولة. الشرطة ترد بكل وقاحة أمواج البشر التي اكتسحتها.

هناك كانت المدينة المجنونة تقذف بأبنائها للمغامرة الكبرى. رئات البنادق الرشاشة مسلولة ترسل بصقها الأحمر. الحزن يتكور في القلب. يتراجع الغفير. كانت الكلمات المخيفة تترامى فيبتلعها في النهاية جوف الهدير والضجيج الذي لم يتوقف.

لن تحجزوا الأشعة. لن تعتقلوا البحر.

البحر قوتنا. البحر خبز أولادنا.

قبل أن تشربوا البحر. تشربوا دمنا.

الموت في المظاهرة يوزع مجانا، ينكمش كغانية فوجئت في

فراشها تمارس الدعارة سرا، إلا رائحة الملح المتصاعدة، الممزوجة برائحة الدم، كانت ما تزال تملأ المكان. تفرّق الناس مرغمين.

****

الطيور التي غادرت أوكارها وتمردت لتحصل على لقمة معجونة بنزيف البحار، رجعت تحمل بين أجنحتها الموجوعة كومة لحم تصلبت شرايينها. خرجت مع البصيص الأول للنجمة الفجرية، تصرخ في الوجوه المنتفخة. تردى الجحيم لأن بحاراً اسمه لخضر نام ذات ليلة جثة هامدة في شوارع المدينة كان هو من فجّر اللحظة المثقلة بالهم، معلنا المرعبة أن كل شيء أصبح مخيفا حتى الطرقات الشعبية. خرجت فعادت تجر أذيال النصر، وتصلب جبينها في الخفاء والعلن، متجهة في خشوع إلى الكوخ الذي كان يسكنه جان كلود حيث تجلس عجوز تقضي الليالي وهي تحضن وحدتها وحزنها.

ـ سيعود. سيعود، هكذا كانت تمتم. سيعود وستغير الدنيا دورتها القاسية.

العالم يمشي بالمقلوب ولكنه سيتغير يوما.

****

ـ يا السي شعبان. الوقت يسحقنا. أظنك فعلت ما اتفقنا عليه. أهَلِ القارب مهيّأ للإبحار؟

ـ كل شيء محضر. هيا بنا. شدّ حزامك وهيّا القدّام.

٣ ـ البحر

كان يمتد ويمتد إلى عالم بعيد. بعيد. في تأن. سقيما جائعا، يلتهم الآفاق في نهم. يسعل سعالا خانقا عندما ترتطم أمواجه برؤوس الصخور المتطاولة أبدا. الأصوات جافة تنبعث من الأركان الأربعة. رائحة الملح تخنق الخياشيم. لا تكاد تفرق بينها وبين البيرّة الرديئة التي تستكين حرارة، نشوة، في بطون الصيادين الجائعة.

ـ البحر. إيه ما أعظمك يا حبيب الفقراء.

ـ أششت. أششت. التماسيح.

ـ أوه يا شعبان. راحنا بعاد. إيه يا حوحا لالة الزين وممُو العين، ما أحلى الحب معك

ـ أحذر. حكايتنا حكاية بنت منصور الموجودة شق سبع بحور.

ـ ساعدني. الشبكة تغلبني.

حين كان البحر يُضّمد جراحهما. كانا يشتريان الموت مجانا.

نطقت في تلك الليلة المتغطرسة ضفدعة متخمة حتى النخاع، في المدينة المريضة كذئب: الرب غني ويحب الأغنياء. البحارة كالبصق يلتصقون بجدار الموت، ويتناسون القاعدة التي نصت عليها دفاتر السماء.

ـ شعبان. سرُح الشبكة مليح. أتعرف يا رفيقي بأننا نمارس عملية خرق للقانون.

ـ خرق القانون. هه. رحم الله عمر الذي جمد تطبيق الحدّ أيام الشدة الكبرى. يقال فيما يقال إن القانون العالي لا يحاسب رجالا فقدوا العقول. بينما في مدينتنا المسلولة وصفراء اللون، تقتل الأحلام

في عنفوانها. يذبح الفقراء لأنهم طلبوا رغيفا أخضر. تعصر قلوب المجانين لأنها رفضت معادلة العصر. تحمل شهادة الجنون، رغيف خبز مكفّن بالدموع وموت أخضر العينين، . وحين يخترق الصباح جدار الخوف، ويفضّ بكارة الموت، تنكمش الدنيا على نفسها كالقنفذ مرة واحدة، وتخرج أشواكها باحثة عن عيون تفقؤها لأن العين صارت ترى أكثر مما ينبغي.

ـ أتسمع يا شعبان. أنظر هناك.

ـ الضوء يتحرك صوبنا. الله يحفظ. الذئاب جاعت. حرك المجداف جيدا نتجه نحو الصخور. ليست بعيدة.

ـ آه. صالح الكلب.

ـ لا يهم. افعل ما قلت لك.

استدار القارب يمينا ثم شمالا، ثم اندفن في عمق الظلمة بحثا عن مخبأ صغير بين خلجان البحر وصخور الشط القريب.

٤ ـ على الحافة

في الصباح الثاني كانت فكرة تروج. تشقّ الشوارع المستلقية في نهم على صدر المدينة المنتهكة.

قالت عجوز تصطاد الأخبار من الأزقة الضيّقة.

ـ يقولون إنهم وجدوه يتوسد الرمال وإلى الأبد ويقولون أيضاً إن الثاني، صاحبه الذي كان معه، ابتلعته الغابة المجاورة للساحل.

على ناصية الطريق كان البحر يمتد تاريخا تهجع بقلبه حكايات

وأساطير العالم المسحوق. يمد أذرعته أمواجا محمّلة بالخبز، ومبللة بطعم الملح، ثم يعود في رحلة أبدية نحو الأعماق التي لا يعلم أحد أسرارها.

ـ يبتلع كعادته ألوف الحصى ويتقيأ ملايين الرمال.

وإذ قالت العجوز نفسها ذات صباح وهي تشتري الموت من قلب الغابة وهدير البحر.

ـ صالح الخائن، وجدوه منتفخا عند بوابات البحر.

فجأة اشرأبت الأعناق، والمدينة يستمعون إلى بقية الباخية[1].

وهران: ١٩٧٥

(١) الحكاية، في اللغة الإسبانية القديمة.

الفهرس

أوه يا ماما حنا. كانا عاريين. هو فوق، وأمي تحت. كنا في منتصف الليل وكنت مريضاً. سمعت شخيراً. خفت. نهضت بسرعة من فراشي. رأيتهما عاريين كفأرين. لم أصدق. كنت أحلم. اختبأت من جديد تحت الفراش، لكني نهضت مرة أخرى على هدير سيارة. انتبهت من زجاج النافذة، كانت بين يديه في لحظ وداع. لم أقل شيئاً. جريت نحو فراشها. رميت الوسادة. الأغطية. علقت بيدي خرقة بالية عليها بقع دم وأشياء لزجة مثل ريق الحلزون في فصل الربيع. تصاعدت إلى أنفي رائحة غريبة تشبه العرق والحيض والـ. . . أحسست برغبة في التقيؤ. أمي لم تكلمني. رجعتْ إلى فراشها ثم نامتْ على دمعة.

في الصباح، شربت كأساً كبيرة من الحليب وقطعة خبز شهية. يحدث هذا لأول مرة منذ وفاة أبي. ثم بكيت. تمنيت في تلك اللحظة لو تخرج كل صرخات الولادة المكتومة التي ما تزال في صدري كالغمّة.